

اقرأ

مارون عبود

أمين الرحباني

دار المعارف بمصر

أَمِينُ الرَّحْمَنِ

مارون عبود

أمين الرحباني

١٣١
اقرا
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرا ١٣١ - أول نوفمبر ١٩٥٣



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـمصر

إلى الذى قال : قل كلمتك وامش .
البساطة روح الفن ، والانسجام روح الجمال .
العمال ، عبيد وسادة ، هم مطبخ الجمهورية ، بل معدتها
الهاضمة .

إنجوانى العرب : ساووا بين الشعوب العربية كلها ، من
حلب إلى عدن ومن العريش إلى خافقين ، وافتحوا مكة
للعالم أجمع ، وعلموا وحرروا المرأة .

إلى غوستاف له بون الشرق
إلى روح فيلسوف الفريكة المخلص لإنسانيته أهدى هذا الكتاب

مارون عبود

عين كفاح ١٩٥٢ / ٩ / ٣٠

فيلسوف الفريكة

١٨٧٦ - ١٩٤٠

نشأته ، وعبقريته ، وشهرته

ما ألفت السير على الطرق المعبدة لأترجم لأمين الريحاني كما اعتاد الكتاب أن يفعلوا ، فأمين بن فارس الريحاني ولد في قرية تدعى الفريكة ، وقد أسماها حين شب وكتب في واديا مقالته الرائع الذي مطلعته : « وادي الفريكة مهيب وجميل غير أن هيئته أكثر من جماله ، وهو عميق ملتو ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه في نهر الكلب . »

في بيت لبناني ، طعاماً ولوناً ، نشأ أمين ، وذلك البيت القائم على كتف كنيسة مار مارون ، الناظر من عل إلى الوادي المتجههم وصخوره المنتصبة كالجبابرة الواقفين على السلاح ، قد أمسى بفضل نبوغ صاحبه مزاراً للناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم . وضع أمين بعد عودته الثانية من رحلته الأميركية سجلاً في صحن ذلك البيت فانطوى على الآلاف من أسماء الزائرين ،

المعجبين بأدب الريحاني الثائر المتحرر .

نشأ أمين نشأة طائفة ، وكان في صغره لا يهدأ ولا يستقر .
ركب بغلا في الرابعة من عمره فرمحه ذلك البغل اللعين ولكنه
نجوا وسلم ، وبعد ستين عاماً مرت على حادثة البغل ركب
الدراجة فسقط في قناة الطريق ، ولفظ روحه بعد بضعة عشر
يوماً .

تحت الزيتونة تلمذ أولاً لخوري الضيعة خادم كنيسة
مار مارون وخدم له القداس وقرأ الرسائل والسنكسار وبعد
عامين انتقل إلى مدرسة حديثة أنشأها نعوم المكرزل فدرس
فيها مبادئ العربية والفرنسية .

وأعتلت صحته بعد رمحه البغل فنذرته والدته لقديس كفيفان
— الحرديني — وألبسته الطوق الفضي المبارك بوضعه على ضريح
القديس ، ثم أزارته والدته مقام الطوباوي الحديد « وهو يرقل
في قمباز مخطط معصفر ، وعلى رأسه طربوش تعلوه كوفية
بيضاء » (قلب لبنان ١٩٥١) .

وحوالى السنة الثانية عشرة من عمره — كما جاء في مقدمة
ملوك العرب — أو العاشرة ، كما كتب في مقدمة — المغرب
الأقصى — هاجر الريحاني إلى أميركا مرافقاً عمه عبده وأستاذه
نعوم المكرزل . وفي نيويورك درس الإنجليزية عاماً واحداً ،

ثم أخذ ينصرف إلى محل عمه وأبيه نهائياً ، وإلى الدرس ليلاً ، ولم تعجبه التجارة فعاف دفاتر المحل وانضم إلى جوقة تمثيلية . وأخفقت الجوقة ولكن أميناً الذي أخفق في التمثيل لم يخفق في تمثل الثقافة الإنكليزية فدخل كلية الحقوق . ثم ولاها ظهره ليكون محامياً عن أمته غير مأجور ، ووكيلاً مسخراً عن الرأي العام ، وكاتباً جباراً عنيداً يقول كلمته ويمشي .

وساعت صحته بعد سنوات فعاد إلى لبنان ، فكان معلماً للإنكليزية في مدرسة قرنة شهوان ، جارة الفريكة ، وهناك تمكن من العربية ما أمكن ، وعرف الأدب العربي وشعره ، ووقعت الطيور على أشكالها ، فعرف أبا العلاء المعري الذي ترجم بعض لزوجياته بلغة شكسبير ، فانفتحت بوجهه أبواب الشهرة في الشرق والغرب . ومضى يكتب بالقلم الإنجليزى فاحتل مقاماً رفيعاً بين أدبائه . وكما توج فولتير من قبل توج الريحاني بإكليل من الغار في حفلة شائقة أقامها على شرفة نادي الثريا الأميركاني ، كما أنبأنا سليم سركتيس في مجلته المعروفة باسمه ، قال : لم أحضر حتى الآن حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والأبدان فهذه لا يدعى إليها إلا أصحاب التيجان ومن كان على طريقهم .

على أنني وفقت إلى حضور حفلة تتويج أحد ملوك البيان ، أريد به أمين الريحاني الكاتب البليغ والشاعر المجيد ، صاحب

المؤلفات الراقية في اللغتين العربية والإنكليزية .

تلك حفلة أقامها نفر من أمراء الشعر والنثر الأميركيين في مدينة نيويورك ، تكريماً لوطنينا أمين الريحاني على أثر ما تبينوه في مؤلفاته من الأدب الجلم . وذلك على أثر انتشار كتابه « اللزوميات » باللغة الإنكليزية .

وبعد أن وصف سليم سركيس ما في المأدبة من تألق وإسراف أميركيين ، وما ألقى وأنشد من نثر وشعر ، قال : « ومثلت لنا سيدة أميركية — لا أذكر اسمها — دوراً غريباً عجيباً لم أسمع نظيره من قبل ، ولا سمعت مثله حتى الآن . ذلك أنها وقفت وأخذت تصفر بفمها صغيراً مثلت لنا فيه معركة حربية ، من ابتداء الموسيقى العسكرية إلى زحف الجيش ، إلى القتال فأصوات المدافع فالبنادق ، فأنين الجرحى ، إلى آخر ما هناك مما حير العقول . ولما فرغ الفضلاء من أقوالهم دعى أمين ريحاني إلى منبر خاص أقيم هناك ، وألقى الرئيس — رئيس نادي الثريا الأميركي — خطاب الشناء والإطراء والإعجاب ، ثم تناول الإكليل وتوج به الأمين . »

ومشى أمين يضرب في دنيا الشهرة ، فبرز في اللسانين الإنكليزي والعربي فأمسى بعد الجهاد ذلك الأديب العالمي ، فذكر اسمه في دليل مشاهير كتاب أميركا وكندا (سنة

١٩٣٠ - ٣١ ص ١٨٧) وفي دليل مشاهير الأدباء المطبوع في إنكلترا (صفحة ٣٦٦ حرف الراء) .

فبعد المجون الذى خاض عبا به أمين الممثل الخائب ،
ترصن الريحاني وأمسى تلك الشخصية التى احترمها ملوك عصره
فى كل قارة من قارات الأرض ، فكانت تقام له الحفلات
التكرمية فى جميع القارات حيث تحل ركابه ، وحسبك أن
تقول فى أسلوبه الإنكليزى الرفيع جريدة بوستون هيرالد : لقد
تبوأ الرأس الشرقى مقعده فى الأدب الإنكليزى بظهور كتاب
« نخالد » . أما جريدة نيويورك بوست فقالت : إن لأمين
الريحاني منحة سامية من جمال اللغة .

وقضى أمين حياته لا يستقر ، فإذا ملَّ الشرق غرب ،
وإذا سئم الغرب شرق ، وهكذا دواليك إلى أن من الله عليه
بالموت فى البقعة التى أحبها ، واستراح جثمانه فى الرابع عشر من
أيلول عام ١٩٤٠ من جهاده ، ونام على كتف الوادى الذى
أحبه نومة الأبد .

تأليفه :

كثيرة ستسمع ببعضها مما قيل عنها حين ظهرت فى عالم
الأدب الرفيع ، وتتعرف على بعضها الآخر فى الفصول التى
ستقرأها ، ولكنك لا تظفر باللذة كاملة إلا إذا قرأتها كلها .

الكاتب الشاعر الإنجليزى

كتب أمين ، أولا بلغة شكسبير فأسمع الأميركان والإنجليز صوتاً شقيقاً ، فأصغوا إليه واسترعى انتباههم . ولما كنت لا أستطيع تقدير قيمته الإنكلوميركية فأى بأس على إذا استعنت بأقلام القوم الذين يزنون الذهب « بالبنس » ؟ ! فاقراً هذه الجزازات التى جمعتها لى ولك ، أيها القارئ ، من هنا وهناك وهناك .

الزوميات :

عندما انتشرت ترجمة الريحانى للرباعيات المعربة إلى اللغة الإنكليزية نوهت بها الجرائد الأميركية بين مقرظة ومنتقدة . وطبعت الترجمة فى إنكلترا أيضاً وقرظتها الجرائد الإنكليزية وانتقدتها أكثر من الأميركية ، فقال فيها أدوين ماركهام وهو من كبار شعراء أميركا : ولأمين الريحانى خاطر شريف فى الحياة ، وسهولة ورقة فى التعبير .

وقال أيضاً : أبو العلاء شاعر حقيقى « مبدع » وله فلسفة أسمى وأنبل من فلسفة عمر الخيام ، وفى ترجمة الريحانى لمنتخباته مزايا شعرية نادرة .

وقال كليتون سكولارد : لو كان لي مجثم في حديقة تزهو فيها زهور دمشق فما كان أسعدني أن أقضى سويعات العصر والغروب متصفحاً اللزوميات ، ترجمة الريحاني .

خالد :

قصة فلسفية مزينة ببعض الرسوم التي جادت بها ريشة جبران خليل جبران . تناول الريحاني في هذه القصة حياة بطلها -خالد- بالتحليل والدرس ، فنقد بلسانه سيئات وحسنات الشرق والغرب . فوصفت وصفاً دقيقاً حافلاً بالسخر والتهمك الريحانيين ، بلغة إنكليزية رفيعة يحسده عليها كتاب الإنكليز أنفسهم .

قالت مجلة « ريفيو أوف ريفيوز » في كتاب خالد : هذه أول مرة يظهر فيها كتاب لأجنبي يتكلم فيه عن الأميركان بسخرية ناعمة . إن كتاب خالد يعد من الكتب الممتازة في الأدب الإنجليزي .

وكتب ريتشارد لي كالياني أحد شعراء أميركا المعروفين ما يلي :

إنها المرة الأولى التي أقع فيها على كتاب قيم ومغر في حياتي . فكتاب خالد هو كتاب عاشه المؤلف ثم كتبه . وفي هذه الحالة تقع قيمة الكتاب في كامل معرفته .

وقال في مناسبة أخرى : هذا أصدق كتاب رأيته وأوفرها تملكاً للخواطر .

وقالت جريدة الأخبار بمصر في ١٤ ك ٢ سنة ١٩١٢ .
 لعل الريحاني أبرع سورى كتب باللغة الإنكليزية .
 والريحاني في كتاب خالد شديد الإعجاب بالأمة الأميركية
 ويزعم أنها ستسود على الأقطار يوماً ، وأن أفرادها سيصبحون
 في الزمن القادم بمثابة الآلهة السائدين على طوائف الأمم بقوة
 علمهم وسمو مداركهم بالرغم من انتقاده القاسي لعاداتهم وملكته
 التكالب على المال .

أناشيد الصوفية :
 وكتب أحد أدباء الإنكليز عن ديوان الريحاني « أناشيد
 الصوفية » فقال :
 « إنه جامع بين عظمة آثار الشرق وجمال معاني الغرب .

جادة الرؤيا :
 عندما ظهر هذا الكتاب كتبت النيويورك تيمس عنه
 ما يلي : في هذا الكتاب جمع الريحاني مقالاته الاجتماعية السياسية
 العربية في الشرق والغرب . والريحاني جمال فريد في النثر . وفي
 هذا الكتاب تتبين قدرته الإنكليزية وطريقته الجميلة الخاصة ،

تلك الطريقة الجميلة الخاصة بمسحتها الشرقية الممتازة ، وبسخريتها
الأميركية الرفيعة .

أنشودة الصوفيين :

وفي هذا الديوان قالت النيمس أيضاً : إن الريحاني شاعر
عميق ذو خيال خصب ومقدرة شعرية عالية . وإن شعره يزداد
جمالاً في صوره الشرقية البديعة .

ملوك العرب :

كتبت عنه جريدة روما الإيطالية حين ظهر بالإنكليزية
واصفة أولاً فصول الكتاب والطريقة التي كتب بها ثم قالت :
نرى كل ذلك أمامنا ليس فقط ككلام مموه بعبارات جميلة بل
كلوحة حية صنعتها يد أشهر مصوريينا العظام .

وقال الأستاذ ا . س يهودا المستشرق الألماني في كتاب
أرسله إلى الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف :

« قرأت كتاب ملوك العرب بكل اعتناء ، ولم أر كتاباً أكمل
وأحسن وأنفع وأبدع منه ، وهو يفوق كل ما كتب حتى الآن
في هذا الموضوع . وقد لفت نظر كثيرين من رفقاائي منذ طبع
فاستحسنوه مثلي ، حتى إن أحد الأساتذة في كلية هيدلبرغ

يقرأه الآن مع تلاميذه المستشرقين .

ابن سعود : بلاده ، شعبه :

كتب السرادينون روس في الأوبزرفر عندما قرأه :
هذه أول مرة نعطى مؤلفاً مكتوباً بالإنكليزية عن رجل
لغته العربية . إن هذا الكتاب ذو قيمة كبيرة لدرس السياسة
الراهنه والحقائق الموثوقة . وهو ذو ناحيتين مختلفتين ، الناحية
السياسية ، والناحية التاريخية الوصفية . وقد أجاد المؤلف في
الاثنين .

وكتبت مجلة بوك ريفيو ما يلي : كل كتاب يديجه قلم
أمين الريحاني يعد ثروة أدبية في العالم العربي ، وكتابه ابن سعود
يعد أحسن كتاب كتب عن البلاد العربية حتى الساعة .

منشئ العربية الحديثة :

وكتب هوتن منفلن عن هذا الكتاب ما يلي : إن الريحاني
هو الرجل الوحيد الذي جاب الجزيرة العربية كلها في سياحة
واحدة ، وكتابه الإنجليزى يمتاز عن غيره في وصفه الجميل ،
وفي سرد الحوادث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

أقوال عامة

كان لكتابات الريحاني عن بلاد العرب وملوكها ، وخصيصاً ابن سعود ، أبعد الأثر في الجرائد والمجلات الإنكليزية العديدة ، — ومنها مجلة آسيا الشهيرة — فكانت تلك الكتابات خير وسيلة لتعريف الغرب على الشرق ورجالاته . لقد حلت تلك الكتابات محلها الأسمى في النفوس لأن لكتابها منزلة رفيعة عند قراء الإنكليزية . ولهذا كتبت عنه مجلة آسيا ما تعريبه :

« إن كثيرين من الأوربيين — سياسيين وجنوداً وعلماء — زاروا بلاد العرب . فهناك مثلاً (بركهارت) و (بورتون) و (دوي) الذين طافوا أنحاء بلاد العرب الوسطى والغربية . و (فلي) الذي اجتاز الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر ، ولكن قل بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المساعدة على التعرف الصحيح ، وحق المعرفة ، في بلاد العرب وملوكها كأمين الريحاني .

إن العربية هي لغته وهو يتقنها كما يتقن الإنكليزية ، ويكتب ببلاغة في اللغتين — وقد تنقل في جميع أنحاء الجزيرة وغايته إيجاد حلف عربي يجمع ملك الحجاز وإمام اليمن والسيد

الأدريسي وسلطان نجد في هذا الاتفاق ، فيوجد إمبراطورية عربية تعمل في سبيل السلام والتمدن . »
 وكتب رئيس نادى الثريا في الولايات المتحدة ، وهو ناد — كما مر — يضم كبار أدباء أميركا في الولايات المتحدة : « إن أمين الريحاني هو أفصح خطيب دخل دائرتنا . »
 واعترافاً بنبوغه وعبقريته قد دعاه المستر ماركهام ، أشعر شعراء الولايات المتحدة ، إلى مأدبة تعود أن يقيمها للخلص من زملائه كل عام .

ودبج : « فاركاس لا فيلا » الكاتب الشهير الذى يعد عند الأسبان بمنزلة مكسيم غوركى الروسى ، فصولاً تحت عنوان « أطواق الذهب » تحدث فيها عن طائفة من جبابرة الفكر في هذا العصر فقال عن الريحاني ما يلى :
 « بماذا ترانى أحدثك عن أمين الريحاني الشاعر الحقيقى الساحر . يخلبنى بعمق فكرته ورحابة آفاق تأملاته وخياله . فقد تجنح فكره واختمر خياله الخصب النامى حتى أصبحت شعراً ، وحتى تحولاً إلى خمرة معتقة إذا سكبت فى الأقداح لا تعافها الأفواه .

لقد نشأ هذا الشاعر فى بوادى الشرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وفى ظل ظلال الجوامع العالية . ففى وسط هذه التأثيرات

الصامته ملاً جرة أحلامه وتصوراته وخيالاته ، وعند ما نما فكره
وارتفعت شجيرة أحلامه أفرغها شعراً عميقاً وطروباً في أفواه
الآلهة . . . »

وقال الأستاذ كراتشكوفسكى المستشرق الروسى فى كتاب
أرسله إلى صديق له :

« إنك لتسمع غالباً فى كتابات الريحاني المبتكرة أصواتاً
حربية جريئة بعيدة الصدى ، فهو ينشد الثورة ويدعو الناس
إلى الذآخى . ومع ذلك فالقوة فى نبوغه ليست فقط فى هذه
الناحية من أدبه . »
وقال أيضاً :

الريحاني هو أكبر كاتب عربى فى هذا الزمان .
وكتب نظمى نسيم فى جريدة السائح النيويوركية : لا
أحسب أن فى العالم العربى شخصاً آخر يحسن اللغة الإنجليزية
كالريحاني ، ولم أعرف أو أسمع أن كاتباً من كتابنا الذين هنا
وفى سوريا ومصر وإنكلترا وكل مكان آخر ، قد جلس على
عرش لغة بيكن وشكسبير كما جلس أمين الريحاني .

وآخر كلمة ندونها فى هذا الموضوع هى التى ننقلها عن
كتاب أمين « المغرب الأقصى » الذى أخرجه حديثاً « دار
المعارف » الرصينة . قال المقيم العام الإسباني فى حفلة معهد

الدروس المغربية بتطوان : « نحتفل اليوم في هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية ، الأستاذ أمين الريحاني الذي شرفنا بقبول تسميته مديراً شرفياً لمعهد الدروس المغربية . قد كان من أعز رغائبنا أن يتعرف إلى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعيني رأسه عمل فرنكو .

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها في العالم العربي إننا نترك الأمر لحكم التاريخ ، والآن لشهادة أمين الريحاني » .

* * *

هذه كلمات تدل على المنزلة السامية التي احتلها أمين في نفوس رجالات العالم قديمه وجديده .

في لغة الضاد

راود أمين لغته عن نفسها فما لانت له في أوائل كتبه : الثورة الفرنسية ، والمخالفة الثلاثية حتى ولا الريحانيات ، ولكن أميناً كان يرمي إلى غرض أسمى من التزييق والتنميق . كان يعنيه أولاً أن يعبر عن فكرة إصلاحية ، ولهذا كتب المخالفة الثلاثية ، والثورة الفرنسية ، والتساهل الديني ، والمكاري والكاهن ، ومع ذلك لم يعن الناس بعبارته لأن فكرته الجريئة شغلهم عن

كل ذلك ، ولذلك قالت جريدة الشمس النيويركية — سنة ١٩٠٤ — عن المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية :

إن هذا الكتيب الصغير خلق ثورة فكرية في الجالية السورية وبعض الأميركيين في هذه المدينة حتى إن أحدهم قال : إن إميل زولا نفسه لم يكن قاسياً بكتاباتة كما كان الريحاني في المحالفة الثلاثية .

وكتب ج . معلوف في أبي الهول :

أتى أمين الريحاني الولايات المتحدة وهو صغير فقدت له الظروف أن يتقلب في أحوال شتى . فعندما كان يافعاً افتتن بالتمثيل فكان يمثل على المراسح الأميركية روايات شكسبير ، ومن ذلك اكتسب مقدرته الفائقة في آداب اللغة الإنكليزية وحسن الإلقاء . ثم تعلم التصوير الهزلي — والصور التي في كتابه المحالفة الثلاثية هي تصوير يده — وكان لمدة متولياً إدارة محل أبيه التجارية فعرف كفاية عن معاملات الناس المادية . وهكذا درس أدوار الحياة قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره .

عرفت الريحاني لأول مرة في حفلة جمعية السيدات السوريات في نيويورك فكان الريحاني مندوباً من قبل جمعية الشبان السوريين ليخطب في تلك الحفلة ، فخطب بالإنكليزية لأنه لم يكن يحسن الإلقاء بالعربية آنئذ ، ثم ساح إلى الوطن وبعد رجوعه

سمعته يخطب مرة أخرى في حفلة جمعية الشبان المارونية في نيويرك وكانت تلك أكبر حفلة سورية ، فخطب بالعربية في موضوع التساهل الديني ، كقاعدة لإصلاح الشرق . ومع أنه تكلم بحرية وبجرأة لم يسبق لها مثيل ، كان يقاطع بتضيفق الاستحسان من الجمهور . ثم ألف كتابه (المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية) وقصده هدم الخرافات الدينية ، ولكنه كان شديد اللهجة فصادف اضطهاداً عاماً وقامت عليه الجرائد والإكليروس . حتى إنه قبل أن ينتشر كتابه المحالفة الثلاثية لم يكن أحد يجسر على أن يقول كلمة بذي سلطان ، فصار بعد ذلك أشد الانتقاد هيناً ومقبولاً ، وصار الناس ، ومنهم الكتاب ، يتمتعون بالدرجة الوسطى من حرية القول . والفضل في ذلك للريحاني . ثم ترجم مختارات من أشعار أبي العلاء فكان لها دوى في أميركا وأوربا .

وكتب حبيب البشعلاني بعد ما سمعه يخطب : ومضى الزينحاني في المجالس والنوادي الأدبية يثير سكوتها ، ويبعث نفسيته الوجلة ويوقظها على الثورة ، وينادي من فوق منابرهما بالهدم والتخميم ، معلناً الثورة على المجتمع وتقاليده وسلطاته الموبوءة بالجور ، وعلى خمولة وقعوده ، لا يستثنى تقليداً اجتماعياً كان أو سياسياً حتى الدين ورجاله ، وهما أعز تمكيناً من النفوس وأقوى سلطاناً في المجتمع الشرقي .

كان عليك ، فى ذلك العهد ، لتدرك سر هذا الرسول
الخارج المنادى بدعوته ، أن تسمعه داعياً خاطباً لا أن تقرأه
كاتباً منشوراً فى الصحف ، والريحاني جليل المنطق مهيب
الموقف قوى الإيمان بدعوته فيبعثها محرقة ، ونظيره فى الإلقاء
قليل .)

وبعد هذا جاء الريحاني لبنان جيئة لا أدري عددها الترتيبى ،
فراح يذيع فى صحف العالم العربى ريحانياته فلفتت إليه أنظار
الأدباء والكتاب . وقالت فيها مى : إن الريحانيات كانت من
الكتب الخمسة أو الستة التى عرفتني بإيمان الفكر الحر فى العالم
العربى الحديث . فى صيغتي الشعر والنثر .

وقال فليكس فارس : لقد أصبح كوخ الريحاني فى أعالي
الوادي محججاً يؤمه كل من استطاب نفحات الأدب ، والشعر
والأدب دولة ، الفلاسفة ملوكها ، والشعراء أمراؤها .

وكتب الدكتور منصور فهمى : لقد تبينت من القطعة
التي سمعتها (من إنشاء الريحاني) أسلوب العظمة الكتابية وصفاء
النفس ، والروح النائرة على النظم العتيقة .

أمين الرحالة

وخطر لأمين أن يرحل في سبيل الوحدة العربية تاركاً الصوفية وخيمة الدرويش وكوزه وإبريقه ، فاستقبلته الأقطار العربية استقبالا منقطع النظير استحقه جاهه الأدبي ، فكتبت جريدة الأهرام عند وصوله إلى القاهرة سنة ١٩٢٢ : (هو الكاتب المشهور والمفكر المدقق صاحب التأليف الثمينة باللغتين العربية والإنكليزية ، وخير ممثل للنبوغ الشرقى فى العالمين الأمريكى والأوروبى .)

وعندما أقيمت له حفلات التكريم فى مصر قبل سياحته فى جزيرة العربية أقام له أحمد زكى باشا حفلة دعاها (صحراوية) وكان الحاضرون لا يقلون عن خمسة آلاف شخص ، وقد حملت رقعة الدعوة ما يلى :

أحمد زكى باشا يرجو مشاركته فى تكريم ثالث الثلاثة بعد الجعدي والذبياني ، نابغة العرب الحديد أمين الريحاني بتناول الشاي على سماط بدوى فوق بساط الرمل وتحت ظلال الأشجار الحرام التى غرسها الصحابة الكرام فى سفح الأهرام ، يشرف عليها بلهيث « أبو الهول » الفصيح بإشارته ، البليغ فى صمته ، القائم على الدوام بحراسة كنانة الله فى أرضه .

وقد نظم أحمد شوقي قصيدة لهذه الحفلة العظمى التي حضرها
 أساطين مصر حتى شيخ الأزهر ، وما قال فيها مخاطباً الأهرام .
 هذا الأمين بحائطيك مطوفاً متقدماً الحجاج والوفاد
 إن يعده منك الخلود فشعره باق وليس بيانه لنفاد
 إيه (أمين) لمست كل محجب في الحسن من أثر العقول وباد
 إلى أن يقول :

رفعوا لك الريحان كاسمك طيباً إن العمار تحية الأجداد
 وتخيروا للمهرجان مكانه وجعلت موضع الاحتفاء فوادى
 إلى أن قال يحثه على تجديد لغته العربية :

لم يكفهم شطر النبوغ ، فزدهم إن كنت الشطرين غير جواد
 أودع لسانك واللغات فربما غنى الأصيل بمنطق الأجداد
 إن الذى ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره فى الضاد
 أما مى فقالت : إن الريحاني وجبران توأمان : عبقريتان
 ساميتان برزتا إلى عالم الوجود تحت سماء سوريا ، والقرن الماضى
 ينحدر إلى خاتمته . غادرا الشرق ونزعا إلى وسط حار ، كله
 عمل ، كله نشاط وعظمة . وهما اليوم يداعبان الذبوع بما يبنرانه
 من آيات خالدة . ولسوف تكون تلك الآيات حديثاً منقولاً
 فائح الشذى يطير بأجنحة الزمن من قرن إلى قرن . ولسوف
 يتوجهما الغد يا كليل وضعه من قبل على رأس شكسبير . كرموا اليوم

ضيفكم وانصتوا إلى تلك القيثارة العازقة فما هي باقية بينكم سرمداً .

في العراق :

ولم تقصر العراق عن مصر في تكريم الأئمة فأقامت له حفلات عظيمة كمصر . لم يظفر أديب من قبل ، بما ظفر به الريحاني ، إذ لم يبق شاعر كبير في مصر والعراق وجميع الأقطار العربية إلا قال فيه خير شعره . كانت زيارة أمين لقاحاً للأذهان والعقول ، داعية إلى الثورة الفكرية التي رأيناها فيما بعد . فهذا شاعر العراق الأمل معروف الرصافي يخاطب الريحاني قائلاً :

من أين يرجى للعراق تقدم	وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند	جبانته ، والمال عند بخيله
والرأي عند طريده ، والعلم	عند غريبه ، والحكم عند دخيله
وقد استبد قليله بكثيره	ظلما ، وذل كثير لقليله

وهذا الشاعر الفيلسوف الزهاوي يقول :

أقول للغرب وهو اليوم ذو قدر يلتقي على الشرق كف القاهرة البطر
كفاك ما أنت تأتيه من الضرر للشرق أرهقت لا تخشى حرازته
يا غرب إنك مغرور به أشر

إلى أن قال :

خفف من الوطء فالأيام تنقلب الشرق يشبه بركاناً به حمم

أخاف من أنه يا غرب ينفجر
وكأن فيلسوف الفريقكة قد أصبح المنقذ المنتظر حتى
هتف به ثالث شعراء العراق محمد الجواهري :
أمثقف . القلم الذى آلى على أن ليس ترجح كفة استعباد
ومشيداً للشرق ركنا يلتجى . منه بأمنع ذمة وعماد
أنصف شكيّة شاعر قد حلقت بالصبر منه فظائع الأنكاد
وهكذا مضى الشاعر يبتث شكواه ببلاغته وحماسه المعهودة .
إن لهذه الحفلات التكرمية كتباً جمعت ما قيل فيها ، وليس
يتسع هذا المجال للتحدث عنها وعن المتكلمين فيها جميعاً ..

رسول الوحدة العربية

لا بدع إن سبق الريحاني الساسة إلى التفكير بجامعة عربية ،
وهل نستغرب ذلك والتاريخ يثبتنا أن الفكرة السياسية يتمخض
بها ، أولاً ، دماغ أديب أو فيلسوف . زج الريحاني نفسه في
هذا المضمار ، وكله إيمان بحيوية الأمة التى « فى عروقه شىء
من دمها » فمشى رافعاً علمها فى الخافقين . ما يشئ أمين
قط من فوز دعوته ولو بعد حين ، وقد حققت الأيام الكثير
من أمانيه الكبيرة ولكنه لم ير بعينيه ما دعا إليه لسانه . وما أظنه
إلا عابثاً حين شبه نفسه بـدون كيشوت فى مقدمة كتابه « المغرب

الأقصى » الذي أخرجه حديثاً « دار المعارف المصرية » بحلة قشبية بعد موته . قال أمين رحمه الله :

« رأيتني أعيد الكيخوتية — عفواً يا سيدى سرفنتس — إلى أصلها العربى ، وإن تغرب لسانها . رأيتني أشحذ القلم واللسان بالإنكليزية ، وأحبر المقالات وأؤلف الكتب بالإنكليزية وأقف على منابر الجمعيات والجامعات الأميركية ، الإنكليزية ، لأفهم العالم الحديد ، رومان هذا الزمان ، إن فى العالم غير أميركا والأميركان ، وأنهم هالكون حتماً إذا استمروا فى جهلهم واستقوا . والغريب العجيب أنهم مثل البرابرة فى الطهر والسداجة قلباً ووجهاً ، كانوا يصفقون للمخطيب — أى للريحانى — ويرحبون به ويعلمه . فازدادت الرغبتان ، رغبتهم فى التعلم ورغبتى فى التعليم — بارك الله فى وفيهم . »

« وتبعت الرحلات العربية رحلات أميركية ، على أن نكبة فلسطين بالصهيونية نقلتني من التعميم إلى التخصيص ، دفاعاً عن إخوانى العرب فى وطنهم الذى يريده اليهود وطناً قومياً لهم . إلى أن قال : وهذا اللبناني العربى يحمل الترس والرمح — كما حملهما ضون كيخوتيه ده لامنشا حقبة من الدهر ، فى سبيل العدل والفضيلة — على معاقل إسرائيل ، على حصون يهوذا . ويلك يا نيويورك ، ويلك ، اكتبى الحقبة لليهود بماء

الذهب ، وسجلها في سجل الصيارفة ، والكهان ، ومثلى رواياتها بالأفلام والكلام ، على ألى مسرح وشاشة .

« وبعد ذلك ؟ ماذا بعد ذلك ؟ ستستفيق ذات يوم قبل صياح الديك ، وستصفرين صفير الهول والهلع ، ستسمعين صوتاً يناديك ويقول : صدق العربى البار ، الحق أصدق أنباء من الدولار ! » المغرب الأقصى صفحة ١٠ .

والغريب من أمر هذا الرجل أن اندول كانت تدعوه لتسمع أقواله فيوبنحها ويؤنّبها ، ويختم كلامه بالدعاء للعرب . فها هو فى المغرب الأقصى يداعب المقيم العام الإسبانى فيجيبه المقيم العام : « اسأل نفسك يا ريحانى ، إنك تحمل منذ أربعين سنة الريح الذى حمله ضون كيخوته ، وأنا مثلك — حامل ذلك الريح — إننا إخوان . وإن لنا فى العالم ، على ما فيه من المنكرات ، إخواناً المحبة يا ريحانى تحل مشاكل العالم كلها ، نعم لولا محبتى للعرب لما استطعت أن أقوم بعمل واحد فيه شىء من الخير الكبير . »

أما أمين فيختم هذا الفصل بهذا الدعاء الصادق : « جمع الله كلمة العرب ، فيضىء نورهم مرة أخرى فى العالم » (ص ٣٩٦) وبلغ من عروبة أمين التى كان فيها عربياً أكثر من سادة العرب أن دعتة الأحزاب الفلسطينية للتوسط بينها فى أمر الصلح ،

كما جاءه ، من قبل ، عام ١٩٢٤ ، وزير خارجية الحجاز موفداً رسمياً ليتوسط في الصلح بين الملك حسين والعاهل السعودي .
والرسائل العليدة التي عنده من ملوك العرب تؤيد ما نزعّم ولو أن هذه العجالة تتسع لها لذكرنا الكثير منها ولكننا نكتفي بشيء من مكتوبي الإمام يحيى :

« ويسرنا إرسال نسخة من المؤلف إن شاء الله بالواسطة التي وصل بها الكتاب ، وقد وصل ما أتخفتمونا وإننا نهدي لكم التشكر وحسن الثناء ؛ لما تقومون به من الأعمال الخيرية وخدمة العنصر العربي ووحدة التي سيحقق الله وجودها الفعلي في الزمن القريب ويسرنا دوام مواصلة تحريركم البديع ونسأل الله لنا ولكم التوفيق إلى أقوم الطريق ١٥ رجب ١٣٤٣ .. »

وفي كتاب آخر يقول الإمام للأمين : ولا تدعوا ممكناً في رعاية الجامعة العربية وما ننال به حقوقها المخصوصة وقول الحق مقبول ينتصر له ذوو العقول .

وقد كتب إليه الأمير شكيب أرسلان من جنيف عام ١٩٣٩ في ١٨ شباط ما يلي :

« وأصل إن شاء الله إلى بيروت في أوائل مارس ، وبعد أن أبقى في الشويفات جمعة من الزمن أتوجه إلى الشام لتسلم عملي الجليل رئاسة المجمع العلمي ، وفي آخر الصيف قد أعود إلى

جنيف لأن بقائي في هذه الوظيفة موقوف على تصديق المعاهدة السورية الفرنسية ، فإن انتهى الأمر بعدم تصديقها فلست مقيماً ببلاد تحت انتداب الأجانب أيّاً كانوا . »

وكتب إليه سعيد العاصي عن جده عام ١٣٤٣

« بعد اطلاعي على كتاب ملوك العرب علمت بأنكم رسول الوطنية في عصرنا ولو أنكم تغاليتم في ابن سعود . »
ومن مونتريال كندا جاءه كتاب من السيد شاهين عبود بتاريخ ٣ حزيران ١٩٢٩ تقتطف منه هذه العبارة :

« أما وللعرب عاطفة الريحاني وثباته وقلمه وروح الشديدة الإيمان بالوحدة التي يسعى إليها كل ذي ضمير حي ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . »

أما الصحف والمجلات العربية الكبرى فأكبرت عمل الأمين وجهاده فقال المقتطف عن كتابه « حول شواطئ البلاد العربية » ما يلي :

« شد الريحاني رحاله إلى بلاد العرب في ١٩٢٢ مؤثراً شظف العيش على نعمائه في دور العالم الجديد ، لأن له غرضاً يختلف عن أغراض سابقاته الأعلام ، دوى وبالغريف وبوخارذت وبرطن وغيرهم ، وغيرهم . غرضه أن ينقل إلى ملوك العرب وأمرائها رسالة علوية ، هي رسالة الاتحاد والتعاون لعلها تكون

ركناً لتجديد الحضارة العربية وبعثها . وإن ما فعله في هذا السبيل والذي تقرأه في كتبه الإنكليزية (ابن سعود ، بلاده وشعبه) وفي (صحراء وأعلى البلاد العربية) ، وهذا الأخير (حول شواطئ بلاد العرب) لأنصع دليل على تلك الجهود التي بذلها في سبيل الوحدة . وإنك لا تقع ، في كتب الريحاني على الوصف المضجر الذي تقع عليه عادة في كتب الرحلات ؛ لأن الريحاني الفيلسوف الأديب يجمع بين الوصف الشعري والحكمة والفلسفة والسرد الروائي والتقرير العامي في فصل واحد . فنقرأ الكتاب كما تقرأ الرواية الأخاذة .

وكتبت اللطائف المصورة عدد ٦٩٤ السنة ١٤ .

« لا نخطئ أو نغالي إذا قلنا إن ليس بين أبناء اللغة العربية من خدم بقلمه البلاد العربية بوجه عام ، ونجده والحجاز وملكهما بنوع خاص ، بقدر خدمات الأستاذ الرحالة الفيلسوف السيد أمين الريحاني . سواء أكان بمؤلفاته الإنكليزية والعربية ، أو بما نشره في أمهات الصحف والمجلات في أميركا وأوروبا ومصر وسوريا »

وكتبت مرآة الغرب في نيويورك في مراجعة كتاب الريحاني الإنكليزي (حول الشواطئ العربية) :

« إن حول الشواطئ العربية ، من خير ما يجرى به قلم

باعتبار اللغة والتفنن وسعة الاطلاع وغزارة المادة. إلا أن الريحاني
عربي أكثر من كل قرشي وقحطاني وعدناني ونجدى ويماني
وحضري وبدوي معاً . وله في سياسته ومبادئه ملء حربته وكل
حقه إذا هو لم يناقش اللبنانيين حساباً يجهله أو يتجاهله .
إن كتابات الريحاني في العرب وممالكهم وأمرائهم ومشايخهم
أفضل من كل ما كتب في الموضوع لأنها خلاصة أفضل
ما كتب ، ولولا تعصب المؤلف لهذه الأمة الكريمة التي تحتاج
إلى النقد فوق ما تحتاج إلى الاطراء لكانت كتاباته خالدة ،
وهي بدون شك طويلة العمر . »

وأصدر الريحاني كتاب « النكبات » فحمل الكثيرون على
المؤلف فكتب الكرملى يقول :

« إن غرض الريحاني من كتاب النكبات هو أن يفتح أعيننا
على الماضي لنعتبر لا لتغنى ونعيش في خيال ما فعله آباؤنا .
فما كان عليه الآباء من الرفعة ، كما قال جمال الدين الأفغانى ،
لا ينفي ما نحن عليه اليوم من الحمل والضعفة .

كتب الريحاني النكبات ليفتح عقولنا على حقائق مخزية
لنحاول نحن أن نكتب صفحة نخالدة أجمل من الصفحة التي
كتبها لنا أسلافنا في سوريا . »

أمين واليسوعيين :

وشاع أن أمين الريحاني قد أسلم فكتبت « البشير » فيما كتبت
هذه العبارة :

« فما قول فيلسوف الفريكة بهذه الرواية ؟ أثبتتها أم يكذبها ؟
وإذا كان أسلم أيكون أميناً على مذهبه الجليد كما كان أميناً
على نصرانيته ؟ ! »

أما الريحاني فكتب يجب عند ما سئل عن هذه الإشاعة
بما يأتي :

« ما علمت بهذا الخبر إلا يوم دخولي دمشق ، والذي أعتقده
أن مصدر هذه الإشاعة هو كتاب أرسلته إلى الصديق سليم
سركيس يوم كنت في ضيافة ابن سعود وقد جاءت فيه هذه
العبارة : على أنني إذا وجدت القضية العربية بحاجة ، لأن
(أتوهب) فسأتوهب . على أنكم تعلمون أنني رجل أعتبر جميع
الأديان محصورة بمعرفة الله ، فأكون قد أسأت إلى سمعة ملوك
وأمرأ العرب الذين زرتهم إذا قيل إنني اضطرت إلى الدخول
في الإسلام لأتمكن من التقرب إليهم . ومع كل هذا فلا أنكر
أنني أمام هدوء البادية وعظمتها ، وتلقاء ما كنت أشاهده من
انعكاف جميع الوهابيين على الصلوات الخمس ، يومياً ، حتى

كنت أجده نفسي وحيداً فريداً في وقت من أوقات الصلاة التي لا يعنى منها هناك لا صغير ولا كبير . استولت على عاطفة حب مناجاة الله فألفت لنفسى صلاة خصوصية كنت أتلوها كلما وجدت نفسي فريداً والقوم في عبادة ربهم . والصلاة هي « النجوى » .

ورغم ما كان بين أمين الريحاني وبين اليسوعيين من العداء المستحكم فإنهم عند درسه في أميركا كتاب مسلك النفس الذي وضعه في الإنكليزية لم يتكلفوا إلا إظهار الحق فقالوا : « مسلك النفس مقالة كتب بعضها في أميركا والبعض الآخر في سوريا ، والمؤلف يعالج مشاكل حياتنا اليوم واضطراباتنا وينبها إلى وجوب محاسبة أنفسنا ، ويقول إن القلق المستولى علينا إنما هو ناشئ عن التكالب في سبيل الماديات . ها هنا مصدر الاضطرابات في الحياة الاجتماعية منها والدينية والاقتصادية.. فلو أن المؤلف أمسك قليلا عن عدائه للكنيسة عداء يكاد يكون قولتيرياً (نسبة إلى فلتير) وقل من الانتقاد لها ، وأكثر من التسخط على ماديات هذا الزمان لكان يصل صوته إلى القلوب والعقول فينفع برسائله أمة استحوذ عليها القلق والاضطراب » .

ثم كتبت في مجلة المشرق في (أيار ١٩٣٤) تقول : « لانعرف أدياً نخدم بلاده والأقطار العربية بأسرها كأمين الريحاني ،

ولو كانت خدماته مقتصرة على المؤلفات التي وضعها في اللغة العربية لتساوى مع عشرات الباحثين من أبناء الوطن الذين يكتبون في محيط ضيق . ولكن الريحاني خدّم بلاده ولغته بنقل أمانها وآدابها إلى لغة الإنكليز ، فتعرف الأميركيون والإنكليز على منتجاتنا الأدبية وتمنياتنا الوطنية .

وفي هذا المقام أرى لزماً على أن أذكر أن كتابات أمين الريحاني قد نقلت إلى أكثر من خمسة عشر لساناً ، أما ما طبع من الفصول التي حبرها أمين بالقلم الإنكليزي فلا يقل عن عشرة مجلدات ، ولكنه لا يزال منشوراً هنا وهناك في زهاء مئتي صحيفة ومجلة إنكليزية كانت تتسابق إلى نشر هذه الآثار .

أمين والانتداب

كان أمين عدو الانتداب رقم واحد ، فبعد ثورته على الشعر الباكي التي كان لها ما بعدها ، ألهمت قرائح الأدباء والمتأدبين فحملوا الأقلام والنبايت ، هذا مع الريحاني وذاك مع الأخطل الصغير ، وسالت بأعناق الفصول أباطح الصحف ... ثم لم يشأ الأمين أن تقف تلك المعركة الأدبية عند ذاك الحد فأصدر كتاباً عنوانه « أنتم الشعراء » فاتبرى للرد عليه ثلاثة كتاب بكتاب عنوانه : أجل نحن الشعراء . وإذا تأملنا النهضة

الأدبية اليوم رأينا الجيل الطالع يريد أن يتوجه الأدب في الطريق النضالية التي شقها الريحاني .

أعلن أمين تلك الحملة الشعواء في حفلة الجامعة الوطنية بعاليه عام ١٩٣٣ وغمر من قناة الانتداب على سمع الكونت دى سالان الذى كان يمثل المنتسب السامى فيها . ظن الناس بعد سماع تلك الخطبة النارية أن سيكون حظ أمين النفى ، ولكن لكل أجل كتاب . أجل النفى إلى ما بعد خطبة ألقاها الريحاني ، بعد قليل من الزمن ، في بيروت ، قال فيها : « قد انتقلنا وما تغيرنا ، إلا إذا حسبنا الرجوع إلى الوراء تغيراً . من عهد عبد الحميد إلى عهد عبد البعل ، ومن ظلم ظاهر إلى ظلم خفى ، من ظلم مختل إلى ظلم منظم ، ومن ظلم يحمل النبوت والكرباج فتتبعهما الـ ، إلى ظلم يحمل اللسائر والمعاهدات ... من استبداد بمنح الامتيازات ليدفع ديونه الأوربية إلى استبداد يستثمر الامتيازات ليزيد ثروته ويفقر البلاد . من استبداد يفرق ويسود لمجد الدولة إلى استبداد يفرق ويسود للاستعمار . من عبد الحميد إلى الانتداب ، من عبودية أدبية روحية إلى عبودية اقتصادية مادية . من عبودية بطنها ملآن إلى عبودية المجاعة ، من خازوق واحد قائم تحت عين الشمس إلى خوازيق تنجرها لنا الليالى ، من دستور منشور إلى دستور معلق .

من عهد عبد الحميد إلى عهد دي مارتل ، هذا العهد السعيد ، هل تقدمنا ؟ هل ارتفعت أخلاقنا ؟

كان عندنا حانات وخانات فصار عندنا مرابع وأرتيستات . كان عندنا كازينو واحد للقمار في صوفر ، فصار عندنا كازينات ، وحلقات لسباق الخيل وللبينات . . .

ولما فرغ من التعداد قال : منذ ثلاثين سنة وأنا أضرب الطينة بالحائط ، فهل الحق على الطينة إذا كانت لا تلتصق أم على الحائط ، أم على اليد الضاربة ؟

لا أجيب على هذا السؤال ولكن قبل أن أستودعكم الله أقول لكم هذه الكلمة ، أقول لكم كلمتين ، ثلاث كلمات . الأولى : إن خلاص الإنسان بيده ، انهضوا نهض الله معكم . الثانية : إن الأمة التي تكثر فيها الطفيليات لا تعيش طويلاً . فكروا بالإنتاج قبل أن يهلككم الاستهلاك .

أما الكلمة الثالثة فهي هذه : جارك القريب خير من أخيك البعيد . بل خير من أمك الحنون البعيدة ، والسلام عليكم

قال أمين قبل أن يختم خطابه « أستودعكم الله » فما كاد يخرج من بوابة التياترو الكبير حتى اعتقل ونفى ردىاً من الزمن ، فكتبت إليه بعد العودة رسالة فيها مداعبة مرة ، فأجاب عليها

برسالة كانت نبؤة ، وقد نشرت رسماً — كليشه — في ديوانى
زوابع ، فارجع إليها إذا لذك أن تطالعها لتعلم أن هذا الجبار
لم يلق سلاحه بل كان سيفه مخدته .

أمين واللغة

قضى أمين حياته فى صراع مع لغة الضاد ، آلى على
نفسه أن يجيد البيان فيها فكان له ما أراد ، ولكن كتابته لم
تسلم من هتات هينات ، كان يتمسك بها خصومه وينعون ذلك
عليه . وما هو يحدثنا عن نفسه فى هذا المجال فى مقدمة كتابه
ملوك العرب :

« عدت إلى بلادى وكنت لا أعرف من لغتى وآدابها غير
اليسير اليسير ، فتغلغلت فى سراديبها دون أن أرثى لحالى . وبينما
أنا أتخبط فى دياجى اللغة عثرت على كتاب شعر — لزوميات
المعرى — أنسانى الكسائى وسيبويه ، وكل من علم حرفاً فى
البصرة والكوفة . »

وقال فى رسالة يجيب الأستاذ جرجى نقولاباز : « لقد نقحت
وصححت مقالاتى العربية جهدى . . . أى والله حينما تمر فى
مخيلتى الفاء السببية يعترينى صدامع ، شديد ، ولما أفكر فى
الفرق بين المفعول به والمفعول معه والمفعول فيه ينحل المعض بى ،

ومعنى ، وفى ، فأود لو عفانى الدهر من لغة حمير ولغة تميم
ومذاهب البصريين والكوفيين .

وقد آلمه نقد كتاب لا لم أعرف أيها هو لأنه لم يسمه فى
الرسالة التى عثرت عليها ، كما لم يسم المتقدم . لا بأس فى نشر
هذه الرسالة التى تدل على صراحة أمين .

« صديقى القديم العزيز :

السلام عليك ورحمة الله ، لقد رابى أمر فى انتقادك (لغة
الكتاب) وعلى الأخص لغة المجددين منهم ، فهل لك أن تنير
الذهن منى . فتزيل الريب والحيرة ؟ ما رأيك مرة تنتقد لغة كاتب
من كتاب المسلمين فهل المسيحيون ، وحدهم ، يمتازون بهذا
الشيء الذى يسمونه العبث باللغة ، أو ليس بين المسلمين التوابغ
من يشدون بالذنب مثلنا وتظنون أنهم ملكوا الناصية ؟

أنر ذهنى ، زادك الله نوراً ، أليس فى الكتاب المسلمين
من يغلط غلطة واحدة لغوية ، صرفية أو نحوية ؟ ! أليس فى
كتاب المسلمين من تقصر مبانيه ، ولو فى فترة من فترات
الإلهام والإبداع ، دون معانيه ، أو معانيه دون مبانيه ؟ عهدتك
عادلاً وعهدتك حكيماً ، ولكنى أراك فى هذه الأيام مثل سواك ،
كمن هم دونك علماً وأدباً ، تنقاد إلى ذلك الروح الخبيث الذى
لا يرى فى صلات الحياة الأدبية شيئاً يوازى ذرة من الميراث

القديم . . . على أنى أسألك ، وأرجوك ، وأتوسل إليك أن تذكرنا ،
وأنت فى نعيم اللغة من الخالدين ، اذكرنا من فضلك وتصدق
علينا بشجرة واحدة من تلك (الناصية) الكريمة ، ناصية اللغة ،
لنحرقها عندما نكون فى خطر من غارات الجهابذة اللغويين
والسلام عليك »

لا أطيل الكلام هنا لأن الريحانى مات وفى قلبه شىء من
« حتى » .

وصية أمين

كتبها فى أيلول ١٩٣١ وهى ليست وصية لفرد من الناس
بل لأمة عاش أمين لأجلها ولذلك تجد فيها نقاطاً فلسفية
اجتماعية سياسية دينية . جاء فى الوصية الثامنة ما يأتى :

إن الوحدة العربية المؤسسة على القومية لا على الدين هى
وحدة مقدسة فأوصيكم بها . واعلموا أن لا خلاص للأقليات
من ربة الأجانب ، أو فى الأقل من التدخل الأجنبى ، إلا
باتحادهم مع العرب ، بل بامتزاجهم بالأكثريات امتزاجاً عقائياً
أديباً روحياً ، فتصبح البلاد ولا أكثريات فيها ولا أقليات .
واعلموا كذلك أن لا مستقبل مجيداً للعرب ولا وحدة عزيزة
شاملة بغير الحكم المدنى الديمقراطى القائم على العدل والمساواة

بالحقوق والواجبات .

واعلموا أخيراً وتأكدوا أن في الدولة العربية الكبرى ستضمحل العصبية الدينية والطائفية كلها ، أو ستتحصر في دوائرها الخاصة بها ولا تتعداها . وسيقوم مقامها في الوطن عصبية الجنس واللغة والثقافة ، وقد ارتبطت كلها بالمثل الإنساني الأعلى ، وبالمصلحة المشتركة المتبادلة بين الأهالي جميعاً على السواء .

وفي الوصية (١٤) : « إن أنوار العالم القديمة على وشك الانطفاء كلها . فتيقظوا وراقبوا المصابيح الجديدة وسيروا في مقدمة المستنيرين بأنوارها » .

وفي الوصية (١٩) « لا أظن أن المسيحيين والمسلمين أو اليهود والبوذيين يسارعون ويتسابقون للصلاة على جثمانى . ولا أظنهم ، إذا فعلوا ، ينفعوننى لأنى لا أعتقد بنفع الصلاة لغير صاحبها ، ولا أعتقد بنفعها إلا إذا كانت محض روحية ، أى محصورة في التأمل ، ولا تتجاوز إلى الطلب والاستغاثة . فالتأمل الروحى هو للنفس كالنور للحياة النباتية ، فتغذى به أزهار الألوهية ، ويفوح طيبها في بساتين الحياة . وكل امرئ من هذا التبيل هو كاهن أو إمام نفسه ، يفيدها باجتهاده ، ولا يفيد سواها . أما الصلاة التى هى طلبات يوجهها المرء إلى خالقه فإنما هى نصيبانية ، بل فيها شيء من الجحود ، كأن الله لا يعلم

بما في القلوب ، كما جاء في الأديان كلها . أو كأنه ، سبحانه وتعالى ، مثل الإنسان ينسى أو يتناسى . فإذا كانت نفس الميت ، مثلاً ، في حاجة إلى الصلوات ، فقد أصبح أقرب إلى العلم الإلهي مما كان في الحياة ، وقد أصبح ولا شغل يشغله عن الصلاة ، فلا تكلفوا أنفسكم إذا أيها الآباء المحترمون وأيها الأحباء . وبكلمة بسيطة صريحة وجيزة لا أريد أن يصلى على جنائى أحد من رجال الدين أو غيرهم .

طاقته الفنية وآراؤه الاجتماعية

الريحاني الكاتب

دب أمين الريحاني ونشأ على كتف واد رهيب من أودية لبنان ، وترعرع ، كما رأيت ، كأكثر نوابغنا في مدرسة غير ذات جدران ، في ظل السنديانة والهيكل . ثم ارتقى إلى مدرسة أعلى رتبة فآلم بمبادئ اللغتين العربية والفرنسية ثم التحق بأبيه فارس المهاجر قبل أن بلغ رشد . وفي أمريكا أتقن اللغة الإنكليزية فبرع فيها ، وبعد محاولات لم يفلح فيها احترف الأدب فصار فيه كأخى النساء ، علماً في رأسه نار . لم تكن شهرته في الشرق أقل منها في الغرب ، بل كان صلة التعارف بين المشرقين ، مسموع الكلمة عند التوأمين ، وكثيراً ما حاول الجمع بينهما ، وإن قال الشاعر الإنكليزي : « كبلنغ » لن يجتمعا .

كانت لأمين رحلات بين أميركا ولبنان فمن هناك إلى هنا ، ومن هنا إلى هناك . حمل إلى أميركا أكياساً من صوفية الشرق وفلسفته ، وجاء إلى الشرق بحمولة من (عملية) العالم الجديد ،

وصناديق من متوجات حرة كتب عليها : سريعة الانفجار .
كانت رسالته أحياناً غير مرغوب فيها ولكنه فرضها على الناس
فرضاً . له رسالة لا بد من أن يؤديها وحسبه ما يعلق منها بالأذهان .
فهو لا يلح على الناس ولا يلحف ، يقول كلمته ويمشي كما
قلنا . يكفيه أن يدعك تفكر بما قال ليعتقد أنه خرج من
المعركة ظافراً .

وجه كأنه وجه الفرزدق ، وعينان كحامتين تجمان على
بركان فائر ، وأنف بين أنف ابن حرب وأنف بلقيس ، وفم
صارم كأنه باب السجن . أذنان كمروحتين صغيرتين ،
وجبهة كأنها مرج ابن عامر . هذا خلقه ، أما خلقه فلا يسف
في حديثه ولا يترمت ، هو بين بين في معاشره الناس ، لا يفتح
الزجاجة فيفوح المسك والعنبر ، ولا يسدها سداً هرمسياً ، لم
ينطق بكلمة فاجرة ينفر منها أشد الناس تمسكاً بالعرف ، لا
تفوح رائحة أحماضه في المجلس فتعمى وتصم .

منذ خطت يده الريحاني أول كلمة عربية أعلن الرجل
استقلاله الناجز تفكيراً وتعبيراً . ظل في مهبط رياح التطور
الفكري حصنة من الزمن يترجح بين صوفية مائعة ، وعملية
حديثية . أما في التعبير والأسلوب فما انفك يبدع قوالب خاصة
حتى آخر ساعة . لم يبال أمين ، وشعاره : قل كلمتك وامش ،

بما يقوله غيره . لبس بذلته ولا يمنعه ما يقول الناس فيها ما دام هو راضياً عنها . .

أعطى من السخر شيئاً كثيراً ، ولكنه سخر مستور . غير مفضوح ، لا يشتم بكرم فضاح كالتى رآها فى الصحراء تعبر النهر . ولا يسكت إذا وجد مجال القول ذا سعة . ليس فى كتابنا أصرح منه ولا أجراً ، يطلب الحقيقة دائماً ، ويقولها كل حين . إذا قال صدق ، لا يوارب ولا يداجى ، يسكت حتى يستطيع الصدق . حاد المزاج نارى الشعور ، ولكنه ضابط نفسه . يخرج عاطفته النائرة بأسلوب غير مبتذل . أشد سلاحه التهكم ، وتهكمه يؤلم ولا يضحك ، ترقى لمن يتناوله ذلك المبضع الذى ينحدر إلى الأعماق حيث اللب والرعب والحقده كسهم البحرى الذى أطلقه على ذاك الذئب .

أمسك بالحبل من طرفيه منذ الساعة الأولى . ترجم رباعيات أبى العلاء إلى اللغة الإنكليزية ، وأخرج إلى العربية « التساهل الدينى » و « المكارى والكاهن » و « المحالفة الثلاثية » فكأنه وضع بها من حيث لا يدري أساس رسالته التى تناولتها يد التطور ، فتذبذب حيناً كرقاص الساعة الهادى ، بين روح هائمة وجسد يرى فى المادة ملاذه . قد تجلت هذه المبادئ متحدة فى صلاته التى كان يتلوها — كما روى — فى البادية . بادية العربية السعيدة :

الريحاني في هذه الصلاة رجل يريد روحاً وعقلاً وجسداً .
 ليؤدى رسالة بنى أمه ، رسالة العروبة الموحدة . رسالة الفلاح
 العربى وإحياء المجد العربى القديم . فقبل أن تظهر رسالة أمين
 النبيلة فلتر العناصر التى تؤلف هذه الشخصية الفريدة ، هذه
 العبقرية التى مرت فى سمائنا مرور الشهاب المتهاوى فروع
 الليل ، وشق أحشاء ظلماته . ثم عقت ذلك النور الثاقب ظلمة
 ملهمة تكاد الكف تلمس جلدتها .

.. إن حب الطبيعة هو العنصر الأول الذى تتألف منه شخصية
 الريحاني . فأمين ككل جبلى دب تحت الخيمة الكبرى تصبحه
 الشمس وتمسيه ، يصفحه النسيم ويضربه الهواء . يسامر النجوم
 والقمر ، وموسيقى الطبيعة تدغدغه بلا انقطاع . يتمتع طليقاً
 بجبال الفصول الأربعة ، فنَمرح الربيع إلى كآبة الخريف ،
 ومن جدد الصيف إلى جهومة الشتاء . ولد حراً يغترف من عطايا
 الطبيعة ومواهبها ويخزن ما استطاع منها فى غضون عبقريته وجيوبها
 إلى الساعة المنتظرة ، ساعة الرسالة التى خلق لها ، رسالة الأدب
 الرفيع والنضال القومى فى الشرق والغرب . وقد عجز بهذه العواطف
 شعره المنشور الذى أبدعه فى الأدب العربى ، فزادت به ثروتنا
 الأدبية وأصبح ميداناً مفتوحاً للذين لا يحسنون الشعر المقيد ،
 وأمين واحد منهم . فهذا الشعر الريحاني يعبق منه أريج الأزهار ،

وتحشرج فيه العواصف والأعصار ، حافل بأنين الناي وطقطقة
الرعاة ، وزقزقة الرعاة ، وزقوقة العصافير .

في هذا الشعر الذي تعرفنا به أجزاء الريحانيات الأربعة
موسيقى شاعر ملهم ، وحنين واله ، لا أثر للتكلف فيه ، بل
هو صرخات نفس تتألم ولا تجد عزاء إلا في حضن الطبيعة التي
تتملق بنينا حيناً ، وتعص وتلبط أحياناً . موسيقى تبطنت شعر
أمين المنشور الذي أملاه عليه وجدانه الثائر قبل أن ينفجر
مصلحاً كبيراً ، وسياسياً مسموع الصوت نافذ الكلمة ، يفتح
المخاطر في سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولكن كتابته في الشؤون
السياسية وشجونها هي من صميم قلب الأدب ، ففي الريحانيات
وملوك العرب وكل ما كتب أمين ترى ما التقطه ذهن هذا
الأديب الأصيل من مشاهد فرسبها أبدع رسم .

ولإلى عنصر الطبيعة ينضم عنصران آخران يتصلان به
ويتفرعان منه هما : المهاجرة ، والمطالعة . فالهجرة مدرسة الريحاني
وجامعته الكبرى التي تلقى فيها دروسه وكان أستاذ نفسه .
ففيلسوف الفريق لم يتلق علومه في الجامعات الرسمية ، هو ابن
همة نفسه ، ابن رغبة فائقة الوصف ، نهم إلى الاكتشاف عن
طريق البصر والبصيرة ، يتلقى الدروس حيث حل ، يرى ويتتقد ،
ويحكم ويستنتج ، ويدرك ويدخر إلى حين الحاجة . ففي التأمل الذي

لا ينتهى ، وفى الاستكشاف المستمر فى الكتب والمتاحف ،
وغرائب الدنيا وعجائبها التى شاهد جلها ، تغذى ذهن الأمين
ورتع ، وأخرج البدائع والطرائف .

أما المطالعة فلا تسل عن عشق الريحاني لها . ولا تسل عن
مغامراته فيها ، فالرجل لم يتعلم لغته على أستاذ ، بل عكف
على مطالعة آداب أمته بجشع ورغبة كما ينبئنا فى مقدمة «ملوك
العرب» . وظل يروض نفسه عليها حتى أسلس قيادها . إن
اطلاع أمين الواسع العميق يبدو فى ملوك العرب حيث لا يغفل
عن شعر أو نادرة يؤيد بها قوله ويدعم كلامه . وقد يأتيك
بألفاظ وضعية لاتنقاد فى الاستعمال إلا بلها بذة اللغة والأخصائيين
فيها . يدلك هذا الاستعمال والاستشهاد على سعة اطلاعه ، كما
يدلك (اللحن) — وهو نادر فى ملوك العرب ، كثير فى
(الريحانيات) — على أنه معلم نفسه كما قال .

فمن هذه العناصر الثلاثة تتألف شخصية الريحاني ، فإذا
أضفنا إليها قريحته الوقادة ، ولسانه الذرب ، ونفسه اللينة العريكة ،
رأينا الرجل العربى الفذ الذى أجله ملوك العرب وكرموا ، ووقره
الأدباء والشعراء وعظموه . لم يذق أديب عربى فى عصرنا الحاضر
ما ذاقه الريحاني من تعظيم وتبجيل ، فبيته كان مزاراً إذا حل .
وهو كان موضوعاً يتساجل فيه أكابر الشعراء إن رحل .

لقد مر أمين في أدوار عديدة ، فحبه الطبيعة واطلاعه
الواسع على آداب أمته وتاريخها ربطه بوطنه ، ونفسه الأبية التي
تكبره التدجيل والمحاباة والرياء سلخته من مدنية الغرب وجذبتة
إلى أمته ، فأطل عليها من تلك النافذة ، نافذة حب الوطن
الذي تثيره محبة الطبيعة . إن ضوضاء أميركا يكرهها رجل نشأ
كالريحاني ، ولهذا ظل يعمل مسيراً بعوامل باطنية حتى أفلت
منها عائداً إلى بلاده يدعو إلى الاتحاد والإخاء والحرية .

في المخالفة الثلاثية

قال الحجاج في إحدى خطبه النارية : إن العلم يوشك أن
يرفع ، ورفعه ذهاب العلماء . لقد كادت أقطارنا العربية أن
تفقد هؤلاء ولكن ما نرجوه من الأحياء يحملنا على مخالفة رأي
الحجاج . إن ثلاثة آلاف سنة تكون أرزة خالدة في رأس
لبنان ، إما دماغ كدماغ أمين الريحاني فلا أستطيع تحديد
الزمن الذي يصنعه .

عرفته صلياً كالألماس وإن لم يكن له بريقه ولمعانه . ربطته
بالمطران الزغبى صداقة غير حائلة ، ولكن ذاك المطران التقى
لم يستطع أن يأخذ من عقيدة صاحبه لاحقاً ولا باطلاً . بقي المطران

في حظيرته يرعى خرافه ، وظل أمين جاداً وراء قطيع يرعاه في مروج الفلسفة الحديثة .

الريحاني وجه لبناني محض استمد لونه من أديم الجبل .
مربوع القامة كبير الهامة . كان وجهه ثعلبياً في فتوته وشبابه ،
ثم استحال وجه أسد غضنفر حين اكتمل وحبا إلى الخمسين .
ترفرف على محياه المهابة متوقراً ، ويقرب من القلب متبسماً ، أما
إذا حمى غضبه فشرارة من جهنم . . . يصبح ويماحك ويطنى
سراجاً مشعلاً . . .

تدارسنا أدبه تلاميذ ، وأول فصل عرفني به ، قرأته في
المقتطف موضوعه « وادي الفريكة » . وفي جامعة العالم رأيت
الريحاني ، أول مرة ، على منبر جمعية شمس البر ببيروت « ١٩٠٨ »
آذار سنة ١٩٠٨ . سمعته يخطب الناس فخلت أن عاموس
النبي قد أفلت من بين الرعاة ليتنبأ قبل الزلزلة بسنتين . . .
علقت بذاكرتي عبارته هذه : الكاهن والطبيب والمحامي
ثلاثة عقبان من بيضة واحدة . وارتسم في مخيلتي يومذاك شكله
القسسي أو الفلسفي : شعر مسترسل كما قال امرؤ القيس :
غداثه مستشزرات . . . ولم تفارق مسمعي نبرات صوته الخورسي
وحركاته المسرحية التي تلبس عبارته ثوباً جديداً ، وتودع فيها
روحاً محيياً .

أمين ثائر متمرد ، هو رجل كفاح ومن كتاب المعارك .
 يثير خلقه ، وحوله ، وفوقه ، وتحتة غباراً لا يشق ، يقول كلمته
 ويمشي ، ينفض نعله على عتبة كوخه ، ويعد حذاء جديداً
 لرحلة أجد . الريحاني مؤمن بأدبه ، واثق بأنه خلق أدباً جديداً
 رحمة بالناس ، وقد أشار إلى هذا حين ناجى جبران يوم عاد
 إلى وطنه محمولا .:

« جبران ، أخى ورفيقي وحيبي ،
 إن للشهرة يوماً ، وللحزن يوماً ، والباقي للبنان ،
 لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون الذي يضمك اليوم ،
 وغداً يضمني إليه .
 ومهما يكن من رسالة حملناها إلى الشرق والغرب فسوف
 ينصف الزمان .
 ومهما يكن من أدب بدعناه ونشرناه رافة بالناس فسيعدل
 المستقبل .
 وإن تراني ، غداً ، في الفريكة يناجي ترابك في الوادي
 المقدس .
 ومن ظلال الصنوبر ، الذي سيظل ضريحى ، سيحمل
 النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، إلى ضريحك في ظلال
 الأرض . »

إن شيئاً من هذا لم يكن .. لا صنوبر ولا بلوط . قبر متواضع في العراء ، حدّه شجرة أو شجرتان لا أذكر ما اسمها ، وقد جمعنا رفاتة في صندوق حين ماتت شقيقته سعدى ، لنوسع لها في ذلك المدفن العائلي في (الشاوية) .

. يخلط أمين — دائماً — التصوف بالعمل المجدى ، يقدم (بزوراً للزارعين) وهو كبير الأمل بالغلة ، ما تنكب عن صراطه قط . أغراه لقب الفيلسوف فطرب وانتشى وتفلسف حتى في المراضيع التي لا تربطها بالفلسفة آصرة قربي . كان الإصلاح الديني هدفه الأسمى ، وأولى معاركه ذلك الخطاب الذي أذاع اسمه بين الناطقين بالضاد . ألقاء ليلة ٩ شباط سنة ١٩٠٠ ، فهبت بعده ريح الأمين وكتب إليه البطريك الماروني مجاوباً : .

« ما قلتموه في هذا الشأن ، وإن قلتموه عن مقصد حسن ، فهو خاضع لتأويلات عديدة . يمكننا التساهل من حيث الطقوس والعوائد المذهبية ، وأما الحقائق الموحاة من الله فلا يمكن التساهل بها مطلقاً . . . ثم إننا لم نستصوب ما قاله من اعترضكم ، في هذه المناسبة ، من الكلام الخارج الخارج عن حد الاعتدال » . .

ونوهت الصحف العربية في العالمين بجرأة أمين فاشتد

ساعده ورعى . كتب « المكارى والكاهن » فارتقى فى سماء الشهرة درجات ، وأخيراً كتب « المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية » فبلغ الأوج . انقسم فيه الناس ، فأصبح فيلسوف الفريقكة عند بعض ، والفيلسوف الصغير عند آخرين ، ولكنه ظل يقول كلمته ويمشى .

ثم كتب بلغة شكسبير فعرفه الغرب كما عرفه الشرق وصار من كبار الكتاب فى اللسانين السامى والآرى .

الريحانى هو أبو الشعر المنشور فى الأدب العربى ، وهو الذى مهد الطريق بلخبران وعبدها ، ولكن جبران طار بهذا الأسلوب على أجنحة رياح الفن والإلهام ، ولم يقع إلا على أعلى الذرى .

الشعر المنشور بناء بلا زوايا ، فيه جمال مطلق . له أعداء الداء حيث وجد ، فعدوه لعبة يتلهى بها المقصرون عن الشعر (الرسمى) . وله أحباب أوفياء يرون فيه منعة لا ترى فى الشعر المقيد . فلا بدع ، إذن إن اختلف القوم عندنا فى هذا اللون الحديد فى الأدب . أذكر لك قول ناقد فرنسى راح يتهمكم بهذا الشعر متمثلاً بقول لافونتين بلسان الحفاش :

« أنا عصفور ، وهذان جناحاي . أنا فأرة ، فلتنحى

الجرذان ! »

ومهما يكن من شيء فأدبنا العربي مديون لأمين بهذا اللون الطريف ، إن النواة في أدب أمين محسوسة ملموسة . هو رجل كفاح قبل أن يكون صاحب خيال وشعر منشور مائع كشعر الذين قلدوا الريحاني « وأكلوا من جفثته ، وشربوا من إبريقه ، وناموا في خيمته » . كان الريحاني في كل ما كتب رجل كفاح وإن رأيناه يتدروش حيناً ويتصوف تارة . وفي كل أطواره كان يشتد كأن النبوة خلعت عليه مسحها .

ما اشتد ساعد جبران وتوغل في أدغال صوفية الشعر المنشور ، حتى رأينا الريحاني يطير عنها إلى قمة أخرى تاركاً لها رداءه كإيليا . فلم يقم منا ، بعد الشدياق ، من جالس ملوك الأرض والرؤساء مجالسة الند للند كالريحاني . حمل هذا النابغة العصامي لواء الشرق العربي في الغرب ، وفاق الشدياق في المعترك السياسي بقلمه الأجنبي . أبدى للعالم وللمستعربين من بني أمه وجه العرب النبيل بكل ما فيه من خطوط فارقة ، وعلامات مميزة ، فسمعت كلمته في أعظم نوادي الغرب وقصور الملوك والرؤساء . ظل أميناً لرسالته في الحقيقة والخيال ولم يحد عنها قيد شعرة ، ومن قرأ جميع ما كتبه يده يرى أنه لم ينقض بنداً واحداً من بنود المحالفة الثلاثية . وإذا صبح النيا الذي نشرته جريدة البشير الغراء يكون الذي « انمسخ » واعترف وتناول هو أخوه البير وصهره

يوسف صادر وصديقه إبراهيم حتى . أما أنا فأقرر أن الريحاني لم ينقض حرفاً من المحالفة ، فقد عرفته صلب العقيدة . ثم ظهر في تركته — ما ترك إلا الحبر والورق — ما صدق ما زعمت .

* * *

يسأل الكثيرون من الأدباء والمتأديبين عن المحالفة الثلاثية النادرة الوجود ، وهذا الكتاب عاد إلى بعد هجرة طالت ثلث قرن ، استعاره منى الخورى ي . ع . فراودته نفسه أن يمتلكه ، وبعد أخذ ورد وتوسط محام صديق لى وله (ا . خ) رجع الحروف الضال إلى قطيعى ، وهو الآن فى مكتبتي ، محوط باسم الله والحرية .

الكتاب يحمل هذه العبارة بخط الريحاني « هدية المؤلف إلى صديقه مارون عبود . الفريكة ٩ حزيران سنة ١٩٠٨ » . أجل قد صرت ، بعد تلك الزيارة الطريفة التى تحدثت عنها فى كتابي « مجددون ومجترون » بمناسبة الكلام عن فليكس فارس ، صديق الأمين ..

المحالفة الثلاثية كتاب رمزى تلبس فيه الحيوانات الجيب والطيبالس : الحصان والبغل والحمار والثعلب والحمل والثور ، ويتخلقون بأخلاقنا ويتحدثون بلغتنا . أما حكايته فهى أن هذه الأسرة الكريمة أشفقت من زوال مجدها وأبعتها واندحار عظمتها

أمام البخار والكهرباء والقطار والأتومبيل . فدعاهم الحصان سيد هذه البطون والأفخاذ إلى مؤتمر يعقد في اسطبله ليبحثوا عما يدعم سلطانهم فلا ينهار . وكان اجتماع طريف تبادلوا فيه الأنخاب وشرحوا العضلات الكبرى . فظهر في المجتمع الثعلب — هو أمين — فأنكر وجحد ، وأنذر وحذر ، وازدري ما يحترم أولئك . وأخيراً أخذ الثعلب المتمرد بجريرة الكفار المارقين ، وحوكم أمام المجلس كجاحد ، وساموه أشد أنواع التعذيب . وأخيراً قضوا عليه بالموت — إلا إذا تاب ورجع واعترف وآمن بما جحد ، ولكن الثعلب لم يرجع عن غيه :

الجلاد — ألا تريد أن تنكر اعتقادك إذن .

الثعلب : إني أموت لأن الحيوانات نيام ، أما أنتم فستموتون لأنهم سيكونون أيقاظاً .

فالتى الجلاد به في النار قائلاً : « فلتكمل مشيئة الله . » وكذلك قال الثعلب الذي يعتقد بالله وحده . ثم ظهر الأسد — المعنى هو الأسد الذي انتصر من سبط يهوذا — فخاطب الحصان والحمار والبغل : أطلب رحمة وليس ضحية ، وقال وقال ... ثم تلبدت السماء بالغيوم وغاب الأسد في سيارته عن الأبصار . قد يقال : ولماذا اختار أمين السيارة ألم تكن الطائرة أنسب ؟ نعم يا سيدي . ولكن هذا الكتاب قد كتب قبل ميلاد الطائرة

وذريتها الكريمة . . .

أما الحصان والبغل والحمار فذهبوا إلى اسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين . وبينما هم ذات يوم يتثون تحت أحمالهم ، على طريق السكة الحديدية ، إذ صفّر قطار العلم القائد عربات البخار . الكهربائية والاختراعات ومر عليهم فسحقهم سحقاً ، وتطايرت رؤوسهم وبقايا أجسادهم في الجو وتشتت أعضاؤهم المنقطعة على طريق التمدن الحديث .

قلت لك إن كتاب المحالفة الثلاثية نادر ، ولهذا سبب لا بد من اطلاعك عليه . زعموا أن ناراً سقطت على مطبعة الهدى التي طبعته سنة ١٩٠٣ فاحترق . ومنهم من يغرب في الأسطورة فيقول : إن النار أكلته وحده ، كما كانت تأكل الذبائح في عهد بني إسرائيل ، ومنهم من قال : إن المطبعة والمطبوعات احترقت جميعاً .

سيان عندي هذا وذاك . أن جزءاً جدعون حكاية طريفة سواء إن ابتلت وحدها أو تبللت الأرض دونها ، فكتابي عندي . كان أمين حين كتب المحالفة الثلاثية رطب العود فصاحة وتركيباً ، أما عقله فناضج ، وهو في كل طور قلما بالي بسينويه والفيروزابادي ، بيد أن لغته قد صحت في آخر العهد فعبرت بالتدقيق عما يجول في ذاك الرأس الكبير .

من حسن حظي أني عدته بعد كبوته المشؤومة ، فرأيته
 في مستشفى رينز ممدداً على سريره . نخلت المصيبة هينة ، ولم
 أكن أدري أنها النومة الأخيرة فلبجأت إلى النادرة كعادتي معه ،
 كلما التقينا ، فقلت له :

أتركب يا أخي في الستين كما كنت في العشرين والثلاثين .
 فابتسم ابتسامة جارحة وقال : ما كل الوقعات تكون في الجورة ،
 روح بقا .

فقلت له : بكل البلاء فيها ومنها يا أمين . . . ورحت من
 عنده مطمئناً إليه حتى نعي إلى في عين كفاح ، بعد مفارقتة
 بأسبوع . ثم سمعت ما خف بسرير موته من أقاويل فتذكرت
 قوله : الكاهن والطبيب والمحامي ثلاثة عقبان من بيضة واحدة .
 أما العقاب الأخير فما انقضى على هذه الفريسة ، لأنها لم
 تترك شيئاً . اللهم إلا ذكرى العبقريّة الفذة الخالدة .

لا بد من واحدة .

زرت مرة أم أمين ، في غرفتها الخاصة ، فكانت جدرانها
 معرض صور قديسين وقديسات كأنها حائط العازارية قبلما
 هدموه . كان قد ثقل سمعها . فقال لي أمين بعد أن استعرضنا
 تلك الإيقونات وسميتها له بأسمائها ، لأنني اختصاصي : ما رأيك
 يا مارون ، سنبقى لذكرها بعد الوفاة هذه وهذه .

قلت : ولماذا أثرتيهما ، قال : لأنها تخصصهما بعبادة .
 قلت : تريد أن تقول بعبادة ، فنكرني قائلاً : وطى : صوتك .
 وعدنا إلى الحديث معها فوعدها وعد حراً بالغفران الكامل
 عند الموت ، بدون اعتراف ومناولة بشرط الندامة بقلبها ، فتهللت
 وتعللت . ولكنى لم أبر بوعدى ، فطالبنى أمين بذلك أكثر من
 مرة لأن أمه تلح عليه — ليتك تقرأ الخطاب والحواب فى هذا
 الصدد .

أما أنا فألححت كثيراً على السيد الفونزوبيرنى فى المدينة
 الأزلية ليرسل لى باسم أرملة فارس الريحانى صورة الأب الأقدس
 حاملة بذيلها البركة الرسولية والغفران الكامل « إينارتيكلوه ورتيس »
 ولكن صاحبنا لم يرد جواباً ، فتأكدت أنه نقل فلم يصله كتابى .
 ثم أكد ما ظننت رجوع الكتاب المسجل والحوالة وقدرها واحد
 وعشرون ليرا .

أسفت جداً لأن أم أمين ماتت ولما تفر بهذه النعمة ، وأن
 تكن قد لا تحتاج إليها لصلاحها وتقواها . والتقيننا مرة بعد موت
 تلك الأم الطاهرة فقال لى أمين : ما قولتك ، أتدخل أم أمين
 الديار السماوية بدون (باصك) . . . فأجبت : إذا قالت إنها
 أملك فنار بطرس لا يردها .

فانتفضت يد أمين — التى كتبت المخالفة الثلاثية فأصيبت

بما أصيبت ، وكركر في الضحك ، وكان صمت . . .
 وقصارى القول أن فيلسوفنا عاش حرّاً ومات حرّاً ، وما أقل
 من ترافقهم مبادئهم كاملة حتى يبلغوا المأوى الضيق .
 لست أزعم أنني أحطتكم علماً بالريحاني ، في ريحانياته وكتب
 رحلاته ، ورواياته خير كثير وسوف نمر بها عجالى ، كما مر
 أمين بالدهناء .

إن تأليفه أشبه بحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها
 القديم ، ومنها الحديث ، من زمن اليونان والرومان إلى عصر
 الإنكليز والأميركان ، من الكباش والمنجنيق إلى الطائرات
 والدبابات ، ومن المدى الحجرية إلى الحناجر الفولاذية ،
 والسيوف اليمنية ، إلى القنابل الديناميتية — لم تكن الذرية
 والهيدروجينية خلقت بعد — فيهاجم بها من مرأى حصنه كل من
 خفق برأسه أمام مرقبه العالى . ولم ينبج الحكام والمستعمرون من
 قذائفه هذه فأذاقوه طعم التشريد والإبعاد .

أما أسلوب أمين ، أسلوب الشعر المنشور وغيره ، فله وحده
 ولا يد لغيره فيه ، وبه غزا العالم العربى فترة من الزمن ، فكان
 فى كل قطر حلته ركابه منارة تتجه نحوها الأنظار ، وقد أقرّ
 له بذلك أبطال الفكر وقادة الأقلام فى كل قطر ، حتى فى
 لندن ونيويورك . كان أديباً عالمياً ، وسفيراً عالمياً عربياً شقيقاً

— مسخراً — رفع رأس بلاده في أكبر عواصم العالم الحديث .
 حيا الله تلك العظام الرميمة ، فهي لم تسترح إلا في القبر .
 أحب ذلك الوادي — وادي الفريكة — صغيراً ، فنام على كتفه
 في (الشاوية) نومة الأبد .
 طاب نومك يا صديقي .

في الريحانيات

— ١ —

نكاد نجد في كتاب (الريحانيات) — وهو بضعة مجلدات —
 شخصية أمين كاملة فلا يفوتنا خط من خطوطها الأصيلة ،
 ولذلك قال لنا : « إن اعتقادي كامن بل ظاهر في سطور هذا
 الكتاب وأضعافها ، فعل القارئ أن يعمل الفكرة قليلاً » .
 لقد عملت بنصحه ، وشكرته لأنه كفاني مؤونة عناء
 التفتيش عن عناصر شخصيته ، وإن كنت لا أكتفي بهذا ،
 بل سوف ألحق به في كل مكان فلا أدع مخروماً طلع به . أما
 الآن فنحن هنا ، ولهذا أقول : كان فيلسوف الفريكة من رجال
 السمات وإن لم يكن كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته كالقاضي
 أبي يوسف . فالذي يسميه غیری إلحاداً وكفراً وزندقة أسميه أنا
 « تبدلاً » . فليس أمين من المعطلة ولكنه مؤمن حر ترك بنيات

الطريق ليسير في الجادة . وما اتجأه إلى الطبيعة وجعله منها
هيكلا له إلا ضرب من أكليريكية أخرى ، وإن عده الناس
مارقاً . هذا ما يسميه علماء النفس استعادة رغبات الطفولة .
فأمين في أحلام يقظته يحقق فكرة لم تتحقق ، فقد تكون
(لقتته) أمه ، صغيراً ، أن ستراه يوماً خادماً للمذبح كنيسة
مار مارون ، جارة بيتهم .

ما كتب أمين مقال (أبرشية الفريكة) إلا مدفوعاً
بالانفعالات الباطنية التي يخضع لها من حيث لا يدري حتى
في تمرده . ففي عروق أمين شيء من دم خدام المذبح ، فجد
جده كان مطراناً يدعى باسيليوس ، كما خبرنا الأستاذ جرجي
نقولا باز ، الأخصائي في تراجم الأدباء اليوم ، ونصير المرأة
سابقاً . . . فمن صلب ذلك المطران الجليل تمشي أمين في
ظهور الأجداد حتى وصل إلينا ، فتكررت « الرغبة » وأصبحت
هذه « الصفة » كما عبر الكاهن الجليل الأستاذ نعيمه — أحد
الأبدال الأربعين المستقرين في لبنان — حين ابتهل مع أمين من
أجله ، وأجل نفسه ، وأجل هذا العالم المنكوب برغوته . . .

لم تكن « المحالفة الثلاثية » إلا مجمع أبرشية فيلسوف الفريكة ،
عليه اعتمد أسقفها العظيم في تدبيرها وإدارتها روحياً — لا تنس
أنها أبرشية بلا رعية — أما (الريحانيات) فهي مواظ هذا الخبر

اللاطقي لا يجيد فيها قيد شعرة عما رسمه في مجمعه الأول . وقد أعلن ذلك ، أو جدد نذره ، بعد ثلاثين عاماً ، حين طبعت ثانية قصة « المكاري والكاهن » فقرر متابعة هذه الحرب العوان التي قامت طول الحياة بدون هدنة تذكر ،

ثم دامت إلى أن أذن الله لهذا الجندي بالإجازة الأخيرة ، وقد أجز كما علمنا في ١٣ أيلول عام ١٩٤٠

لا بدع إن ظل صاحبنا يناضل في هذا الجهاد ، فهو يرى الثبات من الفضائل العظمى كما قال حين مات زعيم المذهب الدارويني في الشرق : « مات شبلي الشميل ثابتاً لاشك في اعتقاده ، أو عدم اعتقاده ، وأمره في الآخرة لربه » .

نشأ الريحاني على كتف ذلك الوادي بين ذراعي والدة صالحة حصان ، اتقد قلبها إيماناً فشع فضائل دينية لا تعرف الحدود ، وبعد امتلاء رثيه من هواء ذلك البيت العامر بوصايا الله العشر ووصايا الكنيسة السبع تنشق هواء أنقى تحت الزيتونة عند خوري الضيعة . ولعله الخوري يوسف يواكيم الذي تخيله أمين في قصته « المكاري والكاهن » ، فهداه الصراط المستقيم مكافأة عن جميله ، فمات المسكين في مغارة قزحيا ، حيث منح الشهادة الفلسفية الكبرى ممهورة بطابع ذلك المعهد ، مداس أبي القاسم الطنبوري .

أما حب الطبيعة الذي تعج به الريحانيات فغرسه فيه ذلك المحيط الواسع الطليق حيث قضى اثني عشر عاماً تناجيه الطيور الفصيحة من الحسون وغيره فتنسيه غطرسة معلمه القسيس . ركب الولد رأسه فهام بين أشداق الصخور المتبسمة عن الزهور البهية الذكية ، فرأى في حضن الطبيعة جمالا دونه وجه معلمه الكالح . وقد يكون هذا هو الذي دس في نفسه تلك البغضة للطقوس التي بشم منها صغيراً ، فثار عليها كبيراً ، ورب أكلة حرمت أكالات .

إن ما لمحتة في الريحانيات يؤكد لي هذا ، فحافضة أمين محشوة عبارات طقسية تراكت فيها حين كان العلم كالنقش في الحجر ، ولكن حجر أمين كان رخواً . . . فامحت المعاني وبقيت الألفاظ رغماً من التكرار الذي يزعم غوستاف ليبون أنه يصير الصدق كذباً . أما أنا فأرى أن الريحاني ، وإن حمل على الطقوس حملاته العنيفة ، فهو يعمل مثلها إنما بصورة أخرى ، أي أنه يمثل الرواية عينها ولكن على مسرح في الهواء الطلق ، وهذا صحي أكثر . . .

يخبر أمين أن في عروقه شيئاً من دم العرب ويعترف بعرقه الفينيقي بخطبة في صيدا . ثم يرى في كتابه ملوك العرب أنه عربي أميركي إنكليزي في شخصية لبنانية . وكل هذا التنوع ، بل

كل الذى صادفه من إعظام وإجلال فى عواصم الدنيا لم ينسه
الفريكة ولبنان .

أما كيف ضيع الفيلسوف إيمانه وشك منذ حدوثه ،
فإليك ما يقول فى ذلك : « وأذكر أنى صليت مرة فى نوبة
غضب وحسد ، فعدعت بالموت على ولد سبقنى إلى نقطة
مستحبة تظللها صخرة ، وقد نبت فيها طيب البنفسج الغزير .
وما هو إلا أسبوع حتى انتشر الجدرى فذهب بحياة ذلك الولد
رفيقى فى اللعب . فنقمت على القديس لأنه استجاب طلبتى .
وآليت على نفسى ألا أصلى له بعد ذلك وألا أجمع الأزهار باسمه .
لأنه إذا كان قد سمع صلاتى ، فما أحراه أن يسمع منى أيضاً
صوت الندامة » .

أفلا يستوجب ما رواه لنا الأمين أن نعهده فى الأبرار
والصديقين ونذكره فى الطوباويين ولا سيما بعد أن بكر فى اجترار
العجائب . . . فقتل بمعونة قديسه وشفاعته طفلاً بزهرة !
ليتلك تماديت يا عزيزى فى صلواتك الحارة المقبولة لتمحو بها
العالم بعناية قديسك السميع المحيى . . . إن فيك يا أخى شرارة
متقدة ، إذا ما أتمدت قلبها اشتعلت أطرافها وهى التى قولتلك :
« أسنى على امرئ يدب حول جذور الدين فى قيود من الإيمان
صدأى » . دنت بالحب العام . فرأيت ناره طاهرة مطهرة ،

وسمعت ، وحدك ، جوزه أفقا تناديك « وإن رقاع الإيمان مثل
فلس الأرملة « ولكنك أنفت من هذه الرقاع فقلت : « وإن
كان ثوبي مرقعاً ، أو عقيدتي مرقعة ، فلا بد أن تأتي ساعة
أنسى فيها نفسى فيزول انتباهى ، فتبدو ذلتى » .

وقد تقول أيها القارئ ، بعد كل هذا : وما اعتقاد أمين ؟
فأجيبك : أن اعتقاده كمعتقد أكثر الناس ، والخلاف قائم بينه
وبين مكفريه على الدرب لا على الطاحون ، الفرق بينه وبين
مكفريه أنه يرد الأمانة عيناً ، ديناراً بطغرائه ونقشه ، والصيارف
يريدونه « فرطاً » ليعلق بالكيس منه شيء وإلا فما الفائدة . . .
يريد أمين أن يتصل بالمعمل توأ ، أما أولئك فيأبون أن يكون شيء
له من هذا بدون واسطتهم .

يقول لنا أمين : « وأما دين أجدادى فقد كان فى جيب
قبائى يوم ركبت البحر مرتحلاً ، ولكنه يقول أيضاً : السير فى
شوارع المدن الكبرى يذكر الإنسان بالإنسان ، وأما السير فى
الوادي أو الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم » . أما خلود
النفس فيقول فيه : « نعم أنا على يقين أن الفكر لا يموت والنفس
لا تفنى » . وفى أثناء كلامه عن الشميل أيضاً يصرح : « ولا
ريب عندى أنه سيكون من المقربين إذا آمنا بما أنزل فى الكتب
المقدسة . بل إنى على يقين أنه أسعد حالا اليوم — ولا عدمية

لمن كان مصباح هدى في الناس — مما كان بالأمس . أليس
 لمثل هذا القول استحق أرسطو الوثني لقب المعلم الإلهي ؟
 أما صلاة أمين المؤمن فطويلة وإليك شذرة منها : « أبانا الذي
 في السماوات كن معي في الحياة وفي الممات ، وإذا زدني قوة
 فزدني يا رب تواضعاً ، ولا تمت في فضيلة إلا لتحبي في أخرى .
 أنت منحتني عقلاً لأفكر ، فإذا فكرت قليلاً فلا تلمني — إن
 وكلاءه الجبريون يلومون — خذني بحلمك الواسع يا رب ، وإذا
 طلبت منك الرحمة لعبادك في أرضك فاستجب يا رب طلبتي » .
 وله صلاة أرفع من هذه كان يصليها في الصحراء وقد جاء
 فيها : « إنك إلهي ولا إله لي الآن . وقد أجابه إلهه كما يقول :
 « أني نبض الحياة فيك ، وروح الحب فيك ، ونور الحكمة
 فيك . كن عليها أميناً فهي الألوهية ديناً و يقيناً » .
 فالريحاني إذن مؤمن كبير حتى في ليالي شكه الملهمة ،
 لأنه لم يحدد المحرك الأول قط فقال في شعره المتثور يخاطب أخاه
 الإنسان : « في وفيك سر أبدي عظيم ، لا يكشف الحديث من
 العلم عن غامضه ولا القديم . الجرذان في قبوك لا يعرفون إذا
 كان القبو ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين . لا يعرفون من شيدته
 ولماذا ، إنما هم يعيشون في زاوية منه ، فيضاعفون نسلهم
 ويضاعفون بذلك عذابك » .

وأما الشياطين ، وهى عقيدة جوهريّة جدّاً ، فيقول فيهم أمين : « ليس هنالك شياطين . غير بشرية ، وعالم الجن هو عالم الوهم والخيال » . وأخيراً يلخص أمين دينه بهذه الكلمة الواضحة : « لا دين لى اسماً ورسماً ، ولكنى أعتقد بالله أبينا أجمعين وأعتقد كذلك بالإنحاء البشرى » .

فما تقدم يتضح لنا أن الريحاني هو عدو التقاليد لا عدو الله والبشر ، كما يحاول أن يقنعنا نفر من الناس . أن اعتقادي الراسخ بالله هو من تلك التركة التى أورثته إياها الأم ، وهذا الميراث لا يزول منا حتى تزول ذواتنا .

يقول علماء النفس : إن الإنسان يتفلسف من قيود الدين فى دور المراهقة . وحسب تحقيق الأستاذ باز كان أمين فى هذا الطور حين ترك دين أجداده على المرفأ فى جيب قبائه كما صرح لنا . . . فشكراً لأمه الصالحة التى لقنته تلقيناً لا إكراه فيه ولا رعب ، حب الله والإيمان به . فليتعض المرءون وليعلموا أن الدين لا يعلم بالعصا . وكيفما كان شأن الريحاني فهو ذو عقيدة ثابتة وليس كالذى نظم فى رباعياته خطرات أفكار الفلاسفة شعراً . إن للريحاني معتقداً ما حاد عنه قط ، وقد لخصه الشاعر العربى بقوله :

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم . وما عليك إذا أذنبت من باس

إلا اثنتين فلا تقر بهما أبداً الشك بالله والإضرار بالناس
 أما ما يعتقده أمين في قصيدته المشورة « ربة الوادى » ،
 وخصوصاً في النشيد الخالد الذى نظمه في رثاء ابن أخته الطفل
 فأشهد أنى عجزت عن فهمهما . تراعى لى أمين في القصيدة
 الأولى أنه أقدم من الهوى ، ولعله من لدات الله ورفقائه في
 المدرسة وقد كانا يتنزهان معاً على وجه الغمر حين كانت
 الأرض خراباً يباباً . إنه وجد منذ الأزل وسيكون بعد الأبد .
 ولعلها شطحة صوفية مرت في سماء حياته مرور النيزك في ليالى
 الصيف .

وأما قصيدته في ابن أخته ففيها من هذه الطلاسم والعقد
 المنقوثة ، ولكنها تفهم بعد إعنات الروية ، لقد تكلم فيه وجدان
 شاعر كبير أبرز لنا كلامه في ثوب بهيج منمنم ، وهكذا صار
 ذاك الطفل خالداً بلا جد ولا كد :

فديوان ربك هذا الوجود وفيه السخيف وفيه البديع
 وأنت ابن أختى بيت القصيد وخالك شاعر رب الريسع
 صدقت يا أمين ، فما قصرت أبداً عن جون روسكين ،
 فأنت شيخ مشايخ شعراء الطبيعة عندنا ، لقد خلدت وخلدت
 كما خلده شكسبير (صاحبه) المجهول .

فمن هذه النوافذ التى رأيت خلص أمين إلى مقاومة التعصب

الذى رآه شر الآفات في أمة تشعبت أديانها وتفرقت . كان لا بد من حملاته المعهودة على الفئة التى هى ملح الأرض ، فكانت الحرب بينهما سجالاً . فكل ما كتبه في الريحانيات تفوح منه هذه الرائحة ، تارة بالتهديد والتفريع ، وطوراً بالسخر والهزاء ، وأحياناً بالتهكم ، وآونة بالتصريح والغمز . مساكين (أبائونا) رجال الدين فهم لا يكرهون جميعاً ، ولكن القضية عند أمين قضية حرب وجهاد ، فهو لا يستثنى من المعسكر أحداً : إنها الحرب . تذكر أنى قلت لك إن الريحاني من كتاب المعارك ، وأسد كلام عرينه المنبر ، يهاجم منه خصومه فيبغتهم ، ثم يدعهم وشأنهم كالمصعوقين ، وفي كل مقام له مقال يثار حوله الجدل . اسمع ما جاء به أمه — وأمه أمته — عند عودته أخيراً إلى « أبرشية الفريكة » :

« قالت الأم — وما الذى جئتني به بعد هجر طويل من البلدان التى سمحت فيها ؟ .

— جئتك بسكينة الدهناء والنفود ، تلك التى تملأ النفس ورعاً وخشوعاً ، فتزول منها الهواجس كلها والهموم .

— لا تنفعني يا بنى ، لا تنفعني .

— جئتك بقناعة البدوى ومروءته ، بشجاعة البدوى

وحريته ، باستقلال البدوى واطمئنانه .

- لا تنفعني يا بني ، لا تنفعني .
- جئت بك بالشمم العربي والإباء ، ببساطة العيش وكرم الأخلاق ، بالجرأة والبطولة في الشدة والرخاء .
- لا تنفعني يا بني ، لا تنفعني .
- جئت بك يا أمي ، بفكرة سامية من المدينة الأوربية —
- العمل الصالح أصبح الأديان — وجئت كذلك بحرية الفرنسي في ثورته ، ونشاط الأميركي في عمله ، وبإيمان الأحرار أجمعين بالحياة والناس .
- لا تنفعني يا بني لا تنفعني .
- وماذا تبغين يا أماء ، يا روح الأمة التاعسة الحزينة ، ماذا تبغين ؟
- رعوس الإله الذي رآته عيناك — إله التفرقة والتعصب والشقاق ، لا أبتغي اليوم سواها .

— ٢ —

وبعد تلك الجولات والحملات ينغمس أمين في المعركة حتى يستولى على الأمد . كان قصاراه أن يتساهل رجال الدين مع معادليهم في المذاهب ، ثم سولت له النفس أكثر من ذلك .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تطفمه ينظم

هكذا قال شاعر البردة ، وهكذا نرى الريحاني ، فتطور
واتجه صوب العمل المجدى فصاح بلسان الشرق ، فى مصر ،
يوم أقيمت له حفلة تكريم فى سفح الأهرام :
« أنا الشرق ،

عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات .
أتحسبها سفاهة منى ، أو تظنها تجديفاً .
قد يكون ذلك قد يكون .

وهناك سر أهمسه فى أذنك يا فى الغرب .
ليست الأديان والفلسفات ما تظنها .
وليست ما تظن أنى أظنها .

فلا للحرارة هى ، ولا للتجارة ، ولا للسياسة ، ولا للتقشف .
إنما الأديان والفلسفات كمصافى الماء .

هى مصافى الحياة ، تصفياها فى الأقل من بعض الحشرات
والجراثيم . »

فأثار هذا الكلام معركة نقد حامية الوطيس ، فقال فى
ذلك أمين : « والعجيب الغريب أن ذكاء بعض الأدباء والشعراء
كبا كبوة عند هذه الكلمة التمثيلية ، فاستعاذ بالله من طمطمانيات
الشعر المنشور ، واعتصم منها بشيء من الأدب القديم العقيم ،
وبأشياء من السخافات فى النقد والمبتذلات . »

ولم تكن هذه المعركة بدون تطور سابق ، فقد سبقتها هذه الكلمة في صيدا : « الكتب المقدسة تصلح الحياة ولكنها لا تعمر البلاد ، والعلوم المادية تعمر البلاد ولكنها لا تصلح الحياة . إذن كتبكم المقدسة احفظوها ، وكتب العلم عزوها » ٧٦-٢ . إن الريحاني من المؤمنين حتى اليقين بعجائب التطعيم ، ولهذا قال يخاطب تمثال الحرية النيويركي :

« متى تحولين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية » . وبعد نجوى قصيرة خاطب البواخر من على جسر بروكلين صائحاً بها : « خذي ، خذي معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشي منها سواحل مصر وسوريا وفلسطين وأرمينيا والأناضول ، احملي إلى الشرق شيئاً من نشاط الغرب ، وعودي إلى الغرب بشيء من تقاعد الشرق . احملي إلى الهند بالة من حكمة الأميركيين العملية ، وعودي إلى نيويورك ببضعة أكياس من بذور الفلسفة الهندية ، اقدفي على مصر وسوريا بفيض من ثمار العلوم الهندسية ، واقفلي إلى هذه البلاد بفيض من المكارم العربية .

أيتها البواخر الآية حي عن جسر بروكلين خرائب تدمر وقلعة بعلبك ، واقرئي أهرام مصر سلام هذه المعالم الشاهقة المشعشة بالكهرباء . سيرى أيتها السفن سلام وارجعي بسلام » .

ألا تهب عليك من بين هذه السطور نفحة من نفحات
أنبياء التوراة ، المبشرين بالويل والثبور ولو قرأت
الريحاني بحذافيره لرأيت خيرات كثيرة ، إنه في مكان آخر
يصيح بأم ناطحات السحاب ، ويسمى بناتها دما مل الأرض ،
وأخيراً يهتف بمدينة الدولار: «يا نويركايم يا نويركايم . ليذكرنا
بصرخة السيد المسيح ، يا اورشليم يا اورشليم» . . .

والغريب من أمر هذا الرجل أنه صريح قاس يشتم سامعيه
ولا يبالي كأنه نبي له سلطان ، فهو يريد لهم أمة تجمع بين
فلسفة الروحانيين وفلسفة الماديين ، يريد لقومه حياة تعظم فيها
قوة الجسد وقوة العقل ، وقوة الروح ، فينادى بالمذهب النيتشي
الذي توكأ على عصاه الأستاذ الرياشي في درس نفسية الرسول
الكريم . قال أمين : « وقد يأتي يوم يشاهد فيه أبناء الأرض رجل
المستقبل العظيم ، وقد ترقى فيه القوى الحيوية كلها ، أى القوى
الحيوانية والبشرية والإلهية ، إلى منتهى الدرجات ، فالإنسان
مركب من هذه القوى كلها وهى كامنة فيه إلى الأبد . نعم
إنى ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة إلى أن يؤيد العلماء
اعتقادي ، فإنى لمؤيده بما أعرفه وبما أجهله من لوح هذا
الوجود » .

ولصاحبنا تنبؤات سياسية صريحة نجلدها في الصفحة

١١٥ وما يليها من الجزء الثاني من ريجانياته وهي تدل على بعد
نظر الرجل وشدة إيمانه برسالته القومية التي عاش لها ومات
عليها .

لست أدري كيف أطبق بين قوله : « أحب أن تشع حياتي
ولا أحبها أن تفرقع . أحب أن تكون كأحد الكواكب السماوية
كسهم من الأسهم النارية » وبين قولي إنه من كتاب المعارك .
فما قولك ، هديت وإياك ، في هذا الحل الوسط وهو أن صاحبنا
يفرقع ليدوم إشعاعه ، ولهذا أثر أن يكون كلامه « كلام شاعر
مفتون لا كلام متصوف مغبون » .

أحب الريحاني الطبيعة في لبنان عامة وفي أدبه خاصة حباً
فائقاً ، ولكنه لا يدين بوحدة الوجود ليؤلفها ويندغم فيها إدماعاً
لا ينفك . إن داء أمين لقديم ، هذا الداء الذي لا يزيله الاستهواء
والإيجاء ، بل هو يشتد حنيناً إلى قوة ضاعت منه في وداى
الفريكة ، فيتبدل أسفه على الشباب الضائع حباً غريباً لتلك
الصخور العابسة ، فيراها أجمل من الأولب وأبدع من الأكر وبول .
ها هو في مقاله « غصن ورد » يزرع حبه في سهول الحرية ،
في أنجاد العلم ، على شط نهر الفلسفة ، في غياض الحضارة
وفي حقول التجارة ، فيذوى ويذبل ويبس ، حتى إذا ما زرعه
في الأرض التي تنبها فارس الريحاني أبوه ، وصلت تحت

أشجارها أمه ، على كتف هذا الوادى الذى ردد صراخه صغيراً ،
غرسه هناك فنبت ونطق أيضاً . . .

لقد صدق علماء النفس ، فإذا كانت نزهة واحدة جميلة ،
كما قالوا ، تجذب الطفل إلى الأبد ، فكيف بمن ينشأ نشأة
أمين الجبلية اللبنانية . ولهذا يرى أمين فى العراء هيكلا يوحى
ما لا توحيه جميع مباني الناس « إن فى ورقة من أوراق التوت
سراً لا يكشفه اللاهوت . إلى الوادى إذا . هناك بين أشجار
البطم والزمزريق وتحت أدواح الصنوبر والسنديان أشيد هيكلا
الإيمان : أرانى هناك فى بيتى ، فى بيت الطبيعة ، بل فى
بيت الله .

فى ظل القويسة والغار ، وبين الصخر والوزال الخنشار ،
وبالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء ،
وفوق النهر الجارى تحت قدمى هذا الوادى الرهيب ، ابنى لك
آيتها النفس هيكلا من الإيمان . يؤمه فى المستقبل البعيد من
إخوانى والقريب .

بل أقيم فيه تمثالا للوداد والإخاء . وأدعو إليه كل بشر
تحت السماء .

ومع هذه الدعوة إلى الطبيعة ، إلى دين السداجة والبساطة
فهو يترجى القيامة كالمؤمنين الرسميين تماماً ، وفى هذا يقول

مفتتحاً قصيدة من شعره المنشور كتبها تذكاراً لراحيل دريان :

« على أبواب الجنة تنتظر الأرواح أحبابها ،

بل تنتظر الأحباب أرواحها .

آه على المحبين ، المودعين والراحلين »

وأمين يعلم حقاً أننا مهما تطهرنا من الماضي البعيد ، ومهما

تعالينا بهمنا عن الناس ، يظل لنا زملاء وأنداد بين السواد من

الناس ، فمن رعيان البقر والمعزى من يفهم ما نفهم ، ويزعم ما نزعم ،

ولكنه لم يؤت منحة الأنبياء ، فصاحة اللسان وسحر البيان : « إن

في قلبي ، اليوم ، شيئاً من قلب جاري ، وفي قلب الغاب أثراً

من أثاري . إلا أن قلبي في عقل هذا القروي . وعقله في قلبي

الحفي . والذي يراه هو تحت الكلاء أراه أنا في السماء » .

اليوم وكل يوم يا صديقي ، فهما انتفضت وتنصلت

فصبغة أملك لن تفارقك جميعها ، ولهذا رأيت (المسيح خير من

تألم في الحياة ، وجئت الكنيسة — بعد القطيعة — لتردد مع

الناس ذكر أمير الناس) وفي إحدى غفلات عقله اليقظ يسأل

الريحاني المسيح قائلاً :

« سيدى ، دعنى ألقى على كتفك رأسى ، فيذوب تلج

فتورى ويأسى »

ألا ترى مثلى أنه يريد أن يكون يوحنا ثانياً ، ففيه حيرة

لا يكاد يعتق نفسه من عبوديتها حتى يجده في أغلالها ، فهو كمن تسوقه عاطفته إلى حيث لا يريد ، ويتم كلامه عما في نفسه الخفية ، وهو يظن أنه ألقاها عنه كصحيفة المتلمس ، وإليك الختام :

« وبينما أنا أكلمه — الضمير يعود إلى المسيح — في البستان أطل البدر من شرفة لبنان ، فتركني ذو الجلال مكاني كالخيال ، وذاب في القمر فوق الجبال » .

فما تقول في (ذو الجلال) أليست من فلتات العقل الباطن . إذا كان الله يطلب كما علم السيد المسيح : يا بني اعطني قلبك ، فصاحبنا أمين طوباي من طغمة الأبرار والصادقين ، فالعقل الخفي كالكنيسة البطرسية التي لا تغش ولا تغش . . .

إن فيلسوف الفريكة لا يجحد شيئاً ، فمن آمن بالله واعتقد أن للجنة أبواباً تدخل منها الأرواح وتنتظر أصحابها عند أبوابها هو مؤمن كبير يستحق التعظيم والتبجيل . وإذا كان الريحاني قد حارب طقوساً فهو قد دعا إلى طقوس ، إنه لا يريد الإنسان هملاً ، يريد كالمسيح هيكلاً لا يبيع فيه ولا شراء . يريد أن يكون رواقياً من المشاة ، لا أكاديمياً على المقاعد الثابتة . . . يريد أن يحيى العبادة في برية جنشار ، وعلى بحيرة طبريا ، وفي ضواحي المجدل .. وهذا يثبت لنا أن صاحبنا يحاول أن يفلت

فيقبض عليه عقله الباطن ، وتتنصر الملكات والعادات المغروزة في أعصابه .

قال غوستاف له بون : « لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجاً أبدياً . إن حب الاطلاع على الأسرار والاحتياج إلى التدين ، وأمل الحياة بعد موت ، مشاعر قوية لا تموت أبداً . »

أما صاحبه جبران — والريحاني سابق — فقد تنصل من الطقوس كافة في (نبيه) فلم يوص بالصلاة ولا العبادات لا في الوادي ولا على الجبل ، لم يتخذ له كاهناً لا الحسون ولا الدورى... وكلا الرجلين العبقرين خطب بنت المسيح الصغرى التي اسمها محبة . ومن آمن بالحببة دان بلدين البشرية الأسمى . ومن هنا انحرف أمين إلى الاجتماعيات فنادى الشرقيين جميعاً : فليحب بعضكم بعضاً ، اتحدوا .

وأمين ، حتى في اجتماعياته ، عاطفي المنطق كرجال الدين يخاطب الوجدان لا العقل ، فكأنه يعلم أن الجمهور يفكر بقلبه ، وهكذا كان يستولى على الجماعات ويقتنعهم إلى حين في غفلة من الملكات والعادات والتقاليد ، حتى إذا تحول عن تخومهم لحقت به تعاليمه تلك إلى أبرشية الفريكة . . .



لست أزعم أنني أحطتلك علماً بالريحاني ، ففي ريحانياته
خير كثير . إنها كما قلنا سابقاً ، أشبه بحصن أعد فيه صاحبه
عدداً وعتاداً منها القديم ومنها الحديث ، من زمن اليونان والرومان
إلى عهد الإنكليز والأميركان . . . أذيق طعم الأبعاد فتألم ،
ولولا العجوز بمنيج ما خاف أبو فراس أسباب المنية . . . إن
محبة أم أمين فرضت عليه الهدنة فسكت حيناً ، وهو الرجل
الضرب الذي عرفناه في معلقة طرفة ، ولسانه أمضى من سيفه
الذي إذا قيل مهلاً قال حاجزه قد .

أما الأسلوب ، فأسلوب أبي الشعر المنشور له ، ولا يد
لغيره فيه ، وبه غزا العالم العربي فترة من الزمن ، فكان في كل
قطر حلت ركابه كالمنارة فتتجه إليه أبصار الشعب وملوكه
ورؤسائه .

إن أسلوب الريحانيات يفيض شاعرية وإن شأبه ، أحياناً ،
ألفاظ مرصوفة مرصوفة . وجمل قد تموت عند سماعها من
الضحك ، وتؤمن لأجلها بالبعث ، إذ تراك تسمع لغة شق
أنمار وسطيح .

في الريحانيات لونان من الأدب : لون ، وهو السواد الأعظم ،
يغلب عليه الويل والثبور ، لون يكتسى صبغة نبوية . ولون

آخر فيه من سحر هاروت وماروت شيء كثير ، وهو الناحية الشعرية من أدبه .

في اللون الأول يلبس أمين فرو عاموس ، وفي اللون الثاني عليه طيلسان مطرز موشى بالأزاهر التي لم يلبس سليمان يوم عرسه كواحدة منها .

إن الريحاني ذو خيال واسع ونفس يتنازعها المرح والتزمت . سخر كلذع الزناير ، وهزه كلسع العقارب . أما التهكم الذي ترتاح إليه نفسك فلا تجده في « الريحانيات » أنه في « رحلات » أمين تلك الكتب الفريدة في أدبنا ، والتي بينها وبين كشف المنجأ ، والواسطة في معرفة أحوال مالطة أقرب النسب . الريحاني في هذه الرحلات واحد دهره بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فهو في رحلاته التي سأحدثك عنها قصاص ومحدث لبق أوتي من قوة الإبداع البياني شيئاً كثيراً .

أما « اللحن » في إنشائه فقاش في « ريحانياته » وقد قل في كتبه الأخرى ، ونلر وقوعه في رحلاته . الريحاني في كتبه الأولى يقول لقدر القوم قد غليت ، ولباب الدار مغلق ، وحد آبي الأسود جهنم . . . قد يجر المثنى بالألف ويرفع الحال ، وينخفض التمييز ، ويصوغ المضارع على هواه ، ثم لا يضمن بالتناذر على شيوخ النحو واللغة ، ويتهكم بهم وبأنصارهم تهكماً مرّاً . . .

فلو كان صديقنا أمين في عهد عبد الملك بن مروان الذي قال لخالد بن يزيد : أفي عبد الله تكلمني ، وقد دخل على فما أقام لسانه لحناً ، لما دخل عليه كما دخل على الحسين وابن سعود ، وفيصل وغيرهم من أصحاب الجلالة .

إن الريحاني معذور فحسبه ما حصل . فهو أستاذ نفسه كما نعلم . إن كتبه لا تحتاج إلى تصحيح عنيف فأخطاؤه نحوية صرفية ليس غير . وجل من لا عيب فيه — كما يقولون .

أمين الناقد

إن النقد هو أبرز سجايا أمين الريحاني ، فهو ناقد اجتماعي في خطبه ومقالاته ، في كتب رحلاته وفي رواياته ، وقلما خطت تلك اليد المتمردة حرفاً يخلو من نقد ، وقلما تحدث إلى الناس ولم يكن للنقد المكان الأول في حديثه . وهو أيضاً ناقد فني للرسم والتصوير ، فإذا شئت معرفة قسوته عليه فاقراً تلك الفصول التي عقدها حول الفن الإسباني في كتابه « المغرب الأقصى » . أما النقد الأدبي فقد كتب فيه فصولاً طريفة في كتابيه : « ملوك العرب وقلب العراق » . كان الكتاب يبعثون إليه بما ينشرون من كتب فيبدي رأيه فيها . ولما تكاثرت الظباء على خراش طبع

أمين رسالة كان يملأ ما فيها من فراغ باسم المؤلف واسم كتابه ،
ثم يوجه تلك الرسالة — الكليشه — إلى أصحاب الكتب التي لا
تستحق الاهتمام . أما الكتب التي يؤبه لها فكان يكتب إلى
أصحابها مناقشاً منتقداً ، وهو في كل هذا ساخر ما كز . . .
لم يقع في يدى شيء من تلك الرسائل لأنقل إليك أيها القارئ
العزيز شيئاً منها ، ولهذا أثرت أن أنقل بعض نماذج من نقله
لشعراء العراق ، وفي هذا النقد يتناول الريحاني شخصية من
ينتقد بتصوير كاريكاتيرى . قال في أحدهم .

« هو في السبعين من سنه الزهى ، وفي العشرين من سنه
الشعرى . وهو في المصائب أبوها وخالها . على أن السنين والعرج
والدرد لا تقل من عزيمته ، ولا تؤثر على نشاطه ، ولا تجرؤ
أن تدنو من صوته وقلبه وروحه . فإذا كان لا يستطيع أن يقف
كالرمح فإن في نبراته رماحاً ، وفي نظراته شراراً . يحسن المجون
فيضحك حتى الجائع في جنازة ، ويسترسل في الشجون فيبكي
حتى إبليس . له لهجة الأنبياء وما يصحبها من آيات ، ومن
آفات . . . وله في التجديف لفظ شريف ، وفي التهكم كلمات
تبكم . فهو يفتل الحاد الحيام بشكوك المعرى ليُصنع منها سوطاً
لشيطانه ومطية لبيانه .

إن للزهاوى آثاراً شعرية نفيسة ، وأنفسها في نظرى وأحقها

يطول البقاء قصيدته أو ملحمته (ثورة في الجحيم) . فكأنه ، وإن اقتنى فيها أثر شاعرين عربي وغربي ، دانته والمعري ، ليقف في التقليد عند الفكرة الأصلية الأولى ، فهو يختلف عن المعري في رسالة الغفران وعن دانتة في الكوماديا الإلهية فيطرق الموضوع من باب جديد ، وقد جاءه — أى الموضوع — كمسلم مشكك في إيمانه ، وجاء فيه باللطائف والطرائف الفكرية والخيالية . »

وبعد أن نلخص أمين موضوع « ثورة في الجحيم » ووصف جبن الشاعر أمام الملكين منكر ونكير قال ناقدًا : « فلاعجب إذا جبن وارتاع وفقد حتى لغة الشعر فنطق بالنثر المنظوم . . . » ثم دل على ألفاظ النثر المنظوم وعد منها — لسوء حظي — و (فيه بثور) قائلا : « إنها من مألوف النثر بل من الحشو أيضاً . أما الوصف فلم ير في وصف الزهاوى للجحيم شيئاً جديداً . بل جاء « وصفه للجحيم والنعم وصفاً تقليدياً ، صورته دكناً واستعاراته بائخة » .

وقال في الشيخ رضا الشبيبي : « ومع ذلك فهو لا يزال في قيود اختارها لنفسه ، هي قيود التقاليد أو بعضها في الشعر والدين . فإن كان قد نفّض غبار النجف عن جيبته ، وعنكبوت النجف عن عمته ، فهو لا ينبذ ، — ولا أظنه يستطيع أن ينبذ — من عقله

ومن قلبه ما ورثه الشيعى العربى من الأجداد ، أى الإرث الشعرى
الأدبى الدينى . وهذا ما يميزه عن الشعراء الآخرين . فقد يكون
أفق شعره دون آفاقهم اتساعاً ، وقد يكون خياله مثل صناعته
الشعرية من المقلد المألوف ، ولكنه شديد الحس ، صادق
اللهجة ، نقى الفكر ، نقى العبارة ، مع شىء فيهما من التجهم
والقساوة ، شاعر تقليدى يحترم الماضى ، ويتورع للحاضر ،
وينظر إلى المستقبل بعين الرضا والاطمئنان ، وقد يعد ، وهو
ضمن دائرة محدودة وإن ضاقت ، من المتمردين .

فى مجموعة متسلسلة من الشعر أشبه بملحمة وجدانية تتجلى
روح الشيبى فى نضارتها ومتانتها ، وفى يقينها وحيرتها ، فهى
تحلق فى سماء الخيال والحقيقة حول رواسيهما العالية ، فتنب
من قنّة إلى قنّة ثم تعود سليمة آمنة إلى بستانها فى (الكرادة) .
وأخيراً قال فى صاحبنا النجفى : « هو طير ولا كالأطيّار ،
له منقار البومة وصدر الورقاء ، وجانح الهدهد ، وذنب الطاووس
وله فى الشلو هديل الحمام وصفير البليل ، وعندلة العندليب ،
هو طير غريب يدعى بين الناس بأحمد الصافى ، ويعرف بالشاعر
المجدد والشاعر البائس . »

ولد فى النجف الأشرف يوم كان الحسن الخلقى والصحة
والنجمة تنثر كلها فى الكون الأعلى ، فما رمقته بنظرة ساعة

الولادة ، ولا دنت بعد ذلك من ملعبه ، أو من رحله ، أو من
كونحه .

تنقل من كوخ إلى كوخ ، ومن بلد إلى بلد ، ومن
مستشفى لا يشفى إلى مستشفى لا يرحم ، وهو في كل أحواله
مجهول غريب . كان يدعى عجمياً في النجف ، وعربياً في
بلاد العجم ، أقام بين البدو فظنوه من الحضرة ، وجاء سورية
فظنه أهلها من البدو .

إنه لطير غريب عجيب ، يحسن الطيران والغناء ولا يحسن
سواهما ، وهو كما ألحت وليد برج النحوس . فالدماثة أمه ،
والبؤس أبوه ، والسقم أخوه ، والفقر ابن عمه . أما الروح منه
فسليمة قوية . »

وتذكر الريحاني بهذه المناسبة حملته على الشعر الباكي فقال :
« فإذا نحن حملنا على الشعر الباكي الذي ألفه شبان هذا
الزمان ، فإننا نحمل على التعمد والعمل والتخنت في الشعر
الباكي ، نحمل على دموع الزور وعلى دموع الخوف والحبانة ،
وعلى دموع الشعراء السوداء ، المكونة من الحبر الممزوج بماء
العواطف الآسن . أما دموع هذا الشاعر فهي مثل اسمه صافية ،
ومثل نفسه صادقة . وهي من نفسه ومن قلبه ، لا من حبر شعره
وتبره . »

وبقى أن أقول كلمة واحدة في آفة له شعرية تكاد تكون
آفة الشعر العربي وخصوصاً في هذا الزمان — أى الإسراف
في الخيال ، وفي الألفاظ ، وفي المعاني . فالصافي غير صاف
في عقلياته ، وما هو فيها بالمبتكر المجدد ، وكذلك قل في
قصائده الوطنية التي قلما تمتاز عن شعره من سواه . «
هذه فقرات من نقد أمين الأدبي أرجو أن تقدم للقارئ
صورة عن هذا الكاتب الفذ الذي عالج مواضيع كثيرة في
أغراض مختلفة وكان فيها جميعاً بارز الشخصية .

بين الجبل والصحراء

الريحاني المجاهد

عاد الريحاني من أمريكا أول مرة ، ولا ثروة له إلا شهرة عاش مغبوطاً بها . عرفته آثاره العربية ببني أمه ، وعرفه أبو العلاء بالأمريكان والإنكليز إذ ترجمه إلى لغة شكسبير . أضف إلى هذا شعره الإنكليزي الخاص وتأليفه التي نخطها قلمه بلغة وطنه الثاني . فكان بيته في الفريكة محجة للأدباء من غربيين وشرقيين يحجون إلى تلك الصومعة فيرون ناسكها الذي يهجرها إلى بيروت متى قرصه البرد ، وإلى نيويورك متى قلّ الزاد . . . يحمل إلى صحف لندن ونيويورك ما يكفيه أجرة مؤونة العيش حيناً في الفريكة فيلسوفاً وناسكاً وشاعراً وأديباً ، وسياسياً وعالمياً ، يراقب الدنيا عن كتب فيأخذ منها مادة المعرفة ليخرجها في خلوته صورة طريفة مبرقشة ببيان الناعم .

نصب الريحاني ميزانه في الفريكة فوضع الصوفية في كفة ، والعملية في الأخرى . لا ينظم لحسون الوادي وشحروره قصيدة

حتى يعد قبلة من ذوات الأطنان ليلقيها في بيروت أو إحدى
 الأساكل ضارباً بها حشد آفاتنا وجوعها . كان معمله في
 الفريقكة يصدر إلى الصحف محصولات متنوعة بعضها روحاني
 يخدر وينوم ، وبعضها عملي يثير ويهيج . فبينما ترى
 الشاعر يسبح في عالم الخيال فيطرب ويسكر ، إذا بك تراه
 يناضل في دنيا الواقع . يهاجم حصون التقاليد المنيفة ليدخلها
 عنوة . وبينما تراه مائعاً في صوفيته اللامتناهية ، حتى تحسبه أحد
 الأقطاب والأبدال ينادى ربة الوادي بأغاني وأهازيج كأنها اللغو
 والثثرة ، إذ به في المدينة يقف مؤنباً وموبخاً هذا المجتمع ليهديه
 النهج السوي المؤدى إلى الحياة المثلى ، ناشراً بين قومه ما يرى
 فيه تقويم اعوجاجهم . رآهم غرقى في اللجج الروحية فأيقظهم ،
 ولكن بمنخس لاذع ، وسوط قارص واصفاً لهم « المدينة العظمى »
 التي يرى فيها الحياة المثلى اللاتقة بأمته .

ثم يترك المنبر ليتحول عن المدينة عائداً إلى عزلته يفتش
 عن حكمة جديدة ويعد قذيفة أخرى تكون « غب الطلب » . .
 أما كفاه حياة في الغربية بين شعب لا يعرف معنى السكينة
 والهدوء والراحة والجمال ، أما عاش طويلاً « بين قوم يأكلون ماشين ،
 ويقرأون آكلين ، ويعدون النقود راكضين ، ويعبدون الأوثان
 نائمين قاعدين ؟ » .

فكما تتناوح الرياح قهّب صباً مرة ، وجنوباً تارة ، وشمالاً أخرى ، هكذا ترى عواطف الريحاني في تفاعل مستمر ، ولكنها لا تتحول عن قطبها الذي ستراه . ما رفع علمه على قبة فلسفته برهة حتى قوض الخيام وآذن بالرحيل ، إلى بلاد الدولار . لم يخص أمريكا بحنين ولكنه كان يؤمها مكرهاً لا بطلاً . يحمل إليها إنتاجه بلغتها فتمد له أسباب حياة مطمئنة تحت سماء الشرق التي فتنته صغيراً وشب هواه معها .

إن هذا الصوت الخفي لا يرح يرن في أذن أمين . وهذه الدعوة السرية التي تنضج وتختمر في اللاشعور لا تفتأ تدعو الريحاني منذ سنة ١٩٠٨ ، وسيكون لها أعظم أثر في توجيهه . ففي صدر الريحاني تعتلج عاطفتان : ميل إلى الفلسفة والشعر ، واندفاع إلى العمل المنتج ، ولا بد من أن ينفصلا ويكون منهما الخير الكثير للأمة العربية .

يعتقد الريحاني أن لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة ، وفي كل نفس بشرية شيء من سماء البلاد التي نشأت فيها ومن أرضها . ففيها شيء من تير وطنها وترابه ، ومن خير هوائها ومن شره ، من فتوره ومن نشاطه ، من هذوئه ومن هياجه . وهذه الأشياء التي فطن لها الفيلسوف قد تفاعلت جميعها فوجهته في المسلك الجديد من حيث لا يعلم .

إن رجلاً كالريحاني يلتهم الكتب التهاماً ليعيش في بيوت
الفريكة المتواضعة كما يعيش في ناطحات السحاب . فالرجل
كان يحيا بعقله أكثر منه بعاطفته . في صدره طموح يدفعه
دائماً إلى المثل الأعلى فيعمل أبداً ولا يمل .

عاد إلى أمريكا وكانت الحرب العظمى الأولى فسد بوجهه
باب العود . فعاد إلى جهاده الأول هناك وراح يدعو أبناء أمته
بمحاضراته ومقالاته إلى التجند مع الحلفاء ليكونوا أصحاب حق
في استغلال بلادهم متى وضعت الحرب أوزارها . ثم لم يكتف
ببث هذه الدعوة في الولايات المتحدة بل تجاوزها إلى المكسيك
فأخرجته حكومتها بناء على طلب حليفتها ألمانيا . ثم كانت الهدنة
وإذا بشيء من أحلامه يتحقق هوذا قومه العرب الذين حن
إلى صحرائهم وباديتهم أمسوا أحراراً : لهم الملك وبيدهم الساطان
فتصور مجدهم الرفيع وعزهم المنيع فأخذ ستار الصوفية ينطوى
أمام عينيه ، رويداً رويداً ، انطواء ستار المسرح ، ليظهر خلفه
الأبطال الحقيقيون ، وإذا بأمين يهلل ويكبر ويصيح : حى
على الفلاح .

وأعد نفسه لسفرته المترامية ، إلى زيارة ملوك العرب المستظلمين
في النبوة ، المجاورين للبيت العتيق ، إنها أمنية طالما حلم بها
وتأقت نفسه إليها وهيأها لها عقله الباطن من حيث لا يدري .

فأمين من عشاق الحرية الكبرى بنت البادية وربية العرب الغرب
الميامين . وقد قال في مقدمة كتابه « ملوك العرب » :
« في نيتي أن أهجر حتى هذا الوادي ، في نيتي رحلة إلى
البادية ، إلى البلاد العربية ، على هجين يبعدني عن كل مظلمة
وعبودية » .

ولكن تلك الرحلة المباركة لم تكن من ذلك الوادي أخى
البادية بل من مدينة نيويورك . أمريكا دعت الريحاني إلى النضال
والجهاد ، والشرق دعاه إلى الصوفية ، فلبى داعي النضال وما
هجر إلا قليلا من صوفيته . لفتح تلك الصوفية بمصل العمل ،
وكر إلى ساحة النضال يطبب الأذهان والعقول باسم العلم والروح .
كانت للريحاني رسالة إنسانية عامة ييشز بها في وطنه قبل
الحرب الكبرى ، وما تلك الرسالة غير مكافحة . جراد التعصب
الديني الذي عاث وأفسد حقول الأذهان والقلوب ، ما وقف
على منبر إلا ليعلم الحرية والإخاء ويحمل على التعصب وأعوانه
الذين يفرقون بين الناس لإنماء ثروتهم ونفوذهم ، فهمهم أن
يسعدوا على حساب غيرهم . رأى أمين نفسه غريباً في وطنه
الثاني وإن تأمر ، فتنبهت فيه نعة الجنسية وطار شرارها ، وظلت
تتلظى في أحشائه مع الأيام حتى رأيناه رحالة يضرب في مجاهل
المسكونة شرقاً وغرباً . ترك الناسك خيمته وجفنته وأبريقه ،

وصار كما قال الشاعر :

كأنمسا هو في حلٍّ ومرتحلٍّ موكل بفضاء الله يذره
ولكنه لم يكن كذلك الشاعر المفتون ، بل كان رسولا
اجتماعياً يؤدي أسمى الرسالات وأنبلها . يزور أقدس أرض شرفها
الله بنحاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله النبي الأُمى
الأمين ، صلى الله عليه وسلم .

ها هو ذا أمين في جدة يتنسم عير البيت العتيق عن بعد ،
ويرى بعينه البقعة المشرفة التي زحفت منها الموجة الكبرى تقاتل
وتمدّن ، وتطهر باسم الله الواحد الأحد ، فحملت مشعل المدنية
قروناً عديدة ، وأتمت الثقافة العالمية ، وحفظتها أمانة إلى الأجيال .
زرعت في حقل العمران كل بذرة طيبة ؛ فزها الدين وفاض العدل
وأزهر الأدب والفن والعلم على يد أبنائها الصالحين . أولئك هم
العرب الأحرار بالفطرة ، وما عشقوا متحضرين غير هذه
العروس الجميلة التي خطب ودها الناس في كل دور . فهنيئاً
للفيلسوف الأمين حظه الخالد فهو حي ما دامت الكتب في
كتابه الحي « ملوك العرب » الذي كشف لنا فيه ، بل لكل
عربي في العالم ، حقيقة إخوانه الذين يجهلهم .

ما كان أمين في كل ما كتب إلا مخلصاً يقول الحقيقة
كلها . فبينما تراه معك يعطيك كل الحق إن كنت صاحبه ،

إذا به ينقلب عليك ليردك إلى الصواب إن كنت ضالاً . كل هذا بيان خلاب وأدب جذاب وانتقاد يصلح ولا يؤلم . يعالج ويستأصل على حد سواء ، وهو في كل حال يرمى إلى الإصلاح إن لكتاب ملوك العرب أجل قيمة في أدبنا المعاصر ، فهو يعرفنا ما نجهل عن قومنا ، ويؤكد لنا ما سمعناه عنهم ، وعن أرضهم . يصف لنا العربي وشيمه ، وحريته وهممه ، وصدقه وكرمه . يرينا أن الرياء لا يستطيع الإقامة تحت السماء التي ريحها نار ، فما يعيش في تلك الأرض المرملة غير الصراحة التي يراها المتحضر ونخشة كحياة المتسمين بها - عرب البادية .

إن هدف كتاب ملوك العرب وغرضه الأمثل توحيد كلمة الأمة لرفع راية العرب . فقد وصف أمين فيه ملوك العرب أصدق وصف وأصح ، ووصف مجاهل بلادهم ، وأبرز لنا ما فيها من مشاهد فتانة ، وحقق لنا ما كنا نظنه حديث خرافة عن « العربية السعيدة » .

إن كتاب ملوك العرب إلياذتنا ، لو كان شعراً ، ففيه يلبس الواقع ثوب الخيال والفن ، فيبرز للناس فتاناً مغرياً . فأفضل تكريم تسديه الأمة العربية إلى روح نابغتها الريحاني هو قراءة كتابه هذا ، والسعي الحثيث لتحقيق آمال مؤلفه المجاهد ، وقد تحقق بالجامعة العربية بعض حلم الفيلسوف

الكبير ، الداعية الأول للوحدة العربية . لقد عاش وطيد الإيمان
بفلاح العرب ومات على هذا الرجاء .
رحمه الله ، وحقق آمال الأمة بتحقيق الأمل الذى مات
عليه .

ملوك العرب

الريحاني القصصى — حاول الريحاني أن يكتب القصص
طويلة وقصيرة فأصاب الهدف الاجتماعى ولكنه ما دنا إلا قليلا
من القصص الخالص ، ولم يبرز فى القصة كما برز فى الرحلات
ففيلسوف الفريكة كاتب موهوب حسن القصص ، وهذا الحسن
قد كان رائعاً فى رحلاته ، وسطاً فى قصصه . كان يعنيه المغزى
من رواياته أكثر من الفن ، فقصر روائياً فناناً وبرز كاتباً
مصلحاً .

كتب أولاً المحالفة الثلاثية والمكارى والكاهن ، وتناول
بعدئذ إلى الرواية الفنية فكتب « خارج الحرم » و « زنبقة
الغور » و « سجل التوبة » . وفى هذه المجموعة الأخيرة التى
ظهرت حديثاً فى سلسلة اقرأ ، انقاد الفن لأمين فى بعضها ولكن
القصص فى هذه جميعها هو دون القصص فى كتب رحلاته ،

وخصوصاً كتاب « ملوك العرب » .

ملوك العرب — فلندع الريحاني يحدثنا عما أوحى إليه بهذا الكتاب ، بل بملحمة العرب التي هي نسيج وحدها . قال أمين في مقدمة كتابه :

« الأجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد أجدادى ، ويخاطرون بأنفسهم فيها حباً بالعلم ، فيكشفون منه المخبأ ويجلون المصدأ ، ويقربون البعيد ويغربون في اللذيد المفيد . وأنا في نيويورك كتيب يحمل كتاباً ، ويطلق للمحرر الإنكليزى المتغطرس باباً . أديب شعره طويل ، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة يرقص حولها الهم والأمل متخاصرين . أف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة . وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة وأخبت ! طلقها ثلاثاً ، وعدت إلى بلادى أعد العدة لرحلة تبعثنى عنها وعن الكتب والمجلات ، والأدباء والأدبيات .

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها . كسرهما ذات يوم فأثار السلطة عليه فصفع السلطة وفر هارباً إلى الفريكة ، فحل فيها أهلاً ، ونزل سهلاً — سهلاً في القلوب ومنحدرًا في الوادى . أقام محمد كرد على عندنا أسبوعاً عددناه من شوارد الزمان .

الوادی مهد الحرية وحصنها الحصين ، سمعني صديق
 — كرد علی — أردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع
 يا أمين . ، الوادی قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين
 للعبودية عبيد ، وللظلم أسياد رعاديد . لا بأس بالهمس : والحمد
 لله . ولكنك إذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتم عليك وعلى .
 قلت : صدقت ، وفي نيتي أن أهجر حتى هذا الوادی .
 في نيتي رحلة إلى البادية ، إلى البلاد العربية ، على هجين
 يبعدني عن كل مظلمة ، وكل عبودية .

فهلل صديقي وقال : نسير سوية ، واتفقنا يومئذ على أن
 نستعين بتجار من نجد في الشام يمهدون لنا السبيل ويزودونا
 بكتب التوصية إلى أهلهم وراء النفود .

ولكن هذا الحلم لم يتحقق فذهب الأستاذ كرد علی فاراً من
 سورية إلى أوربا ، وعاد أمين إلى نيويورك ، حتى كانت
 الحرب العظمى وانقضت ، فعادت الريحاني أحلامه بزيارة
 العربية السعيدة ، فكان حظ العروبة كبيراً إذا أثمرت تلك
 الرحلة هذا الكتاب الفذ ، وكان حظ الريحاني كبيراً أيضاً لأنه
 كتب كتاباً خالداً ومخلداً .

في هذا الكتاب نثر وشعر ، وفيه فكاهات وطرائف ، وفيه
 سياسة واجتماع ، وفيه دعوة صارخة إلى تعزيز القومية العربية

باتحاد ملوكها. إنها النواة لفكرة « الجامعة العربية » يوم لم يكن يحلم بها أحد .

ترجم فيه أمين ثمانية هم ملوك أو كالملوك ، بل فلنقل بلغة الريحاني : « ولكنهم ملوك وإن اختلفت الألقاب ، مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض ، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً . لا تجد بينهم من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة ، أو يعرف من الأقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه » .

ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها ، وليس فيهم من يستطيع أن يقول : إلى أعرف بلاد العرب وسكانها وحكامها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية .. وال إلخ في كتاب ملوك العرب وصف بل تصوير نائي الخطوط للملوك الذين زارهم أمين ، وأحاديثه معهم ترينا نفسية كل ملك منهم ومقدار مواهبه في كل ميدان . وصف لنا عاداتهم وطرق تشريفاتهم ، وبالاختصار لم يدع شاردة ولا واردة لم يسجلها يراعه الطريف الظريف . وصف العربي وصلابته ، ونقل شذرات من أحاديثه الطريفة التي تدل على ذكاء متوقد ، وبلاغة عرف بها . « البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون » . هكذا قال الملك حسين . أما أمين فما أجمل تعبيره وتحديده

لسذاجتهم حين سماها الجهل المسلح . إن لأمين كثيراً من هذه
التعابير الطريفة ، أحب أن أنقل للقارئ شيئاً منها قال :
« لم أتمالك مرة أن أظهرت دهشتي ، وبيدي آلة التصوير إذ
رأيت إحدى النسوة تنزل من الجلسوت إلى المياه ، وقد شمرت
بكرم فضاح ، فقال رفيقي : شيء مألوف : نخذ صورتها ولا
بأس . فصورت آية النشور ، أما الوجه فمحدور .

وقال في رجل من الهندوس : إنه من أصحاب السراويل
الشفافة التي تهف حول الجنين وتبوح بكل أسرارهما .

وقال يصور شاعراً يجله ويحترمه : « وقد اختبأ تحت الشوارب
جل ذلك الفم البليغ الذي هو ختم الغم إذا سكت ، وباب
الصواعق والأضاحيك إذا تكلم . أما الأنف فنبسط الأطناب
مستريح تحت عين دامعة . أما ثيابه فافرنجية ولكنها كذلك
حرة أبية ، بنطلونه كالكيس حول الساق » .

وهو لا يحرم أي موضوع من مواضيعه من مثل هذا الجمال
الفني ، فقال في نساء الزيود المجدورات : « وأكثرهن يحملن
في وجوههن نبأ حسن ذهب فريسة الجهل والوباء » .

كان غرض أمين من رحلته سياسياً وقد حاول تقريب
قلوب ملوك العرب ، وكتب بينهم معاهدات ولكن كل هذا
لم يثمر ، ولذلك أراني مهتماً للون الكتاب الأدبي أكثر من لونه

السياسي . سيقال في غد : لم يفلح أمين سياسياً ولكنه أحدث في كتب الرحلات أدباً وفناً كان السباق إليها أحمد فارس الشدياق ولعل الفرق بين النابغتين هو أن الشدياق كان يكتب بالقلم العريض ، أما الأمين فيكتب بإبرة السيلو الدقيقة . . . لقد تماجن أمين وتهكم ولكن من وراء ستار شفاف يدل على محاسن القوام ولا يكشف العورات .

عرفنا بالبلاد العربية أصدق تعريف ، فمن منا كان يعلم أن لبنان يضيق في جبال اليمن وأوديته المترامية الأطراف . وأن الطير نفسه ليتعثر بسنام الصخور والقنن ، وأن الطائرة إذا حلقت فوقها تضل السبيل في ما يشبه تحتها أمواج البحر .

وينقلك الريحاني من بحث طبيعي إلى آخر صوفي ، وفي هذا كله تلمس العنصر الشعري والنثر الفني ، فتقرأ ما كتب وتصديق كل ما قال . قال يصف الأكل عند الإدارة : « وكنت أشتى بعد سف شيء من الأرز بقعة خضراء أرعى فيها . وأشتى قبل كل شيء الماء فأجده في النعارة فاتراً ، فأصبه في الكأس فإذا هو أصفر اللون ، فأغمض عيني وأشرب باسم الله . أما كرم الإدارة فما كان ليخل قط بقاعدة الضيافة عندهم — فوزة كل يوم .

أغدق الله عليكم أيها الأفاضل ، وبارك الله فيك يا جيزان ،

بركة تشمل من أجل أسيادنا بنى إدريس آلة لتصفية الماء
ومعملا للثلج

قلنا إن الريحاني ساح في سبيل الجامعة العربية ، وهنا لابد
من نقل كلمة حول الموضوع ، وهي من حديثه مع السيد
الأدريسى . قال الإمام :

«المسألة بيتنا وبين الشريف - أي الملك حسين - قريبة
ميسرة . نحن أولاده ، نحترمه ونجمله ، ولكننا نطلب منه أن
أن يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم في الأمر ، أها ،
ليسألنا ، يشاورنا ، نعم ، هو لنا بمثابة الأب ونحن أبنائه
الرائدون . عندنا حكمة ، آها ، حكمة في الدين ، حكمة في
السياسة . وعندنا قوة . القبائل في يدنا . . . والله لا تمر أربعة
أشهر على المعاهدة - المعاهدة التي وضعها الريحاني - إلا نكون
أصلحنا الأمر بينه وبين ابن سعود ، فتسير القوافل آمنة إلى
إلى مكة والمدينة .»

قال أمين : واغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود ،
فقلت : إذا أصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد ، فهو
ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم وبين الإمام يحيى ، فتم
بذلك المحالفة الرباعية ، وهي كما أظن حجر الزاوية في الوحدة
العربية .

فقال سيادته : هذا كلام حق . ولكن الأمر بيتنا وبين
ذاك الرجل بعيد .

— وليس على الله ، يا مولاي ، أمر عسير .

— نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الأديب بعبدین مما
تروم ، ولكن ذاك الرجل أضربنا ، أضربنا والله ضرراً حسياً ،
ونحن نفعناه ، وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش . أما
نحن والمملك فقد كان النفع والضرر بيتنا منادمة ، لذلك ترى
الأمر قريباً بيتنا . انتهى

لقد شغلتنا السياسة عن الاستطراء ولكن من كان مثلي
لا ينسى . قال أمين : إنه اشتهى بقعة خضراء ليرعى فيها ،
فهاكه حقيقة يرعى ، قال : إن أبهج ما يشاهد الإنسان في
الصحراء بقعة أرض خضراء ، ولكن الحيوان ذا السنام كان أو ذا
القرون ، يشارك الإنسان في هذا الابتهاج . وقد تبارينا كلنا
حول البرتيسة التي يدوم اخضرارها طيلة السنة .

جاءني مبارك ، وهو نباتي الحملة ببضع وريقات خضراء
يقول هذا الحنبصيص . ثم جاءني بعشبة أخرى سال لمآها اللعاب ،
الرشاد ، وهو في بادية نجد نفسه في لبنان لا يتغير اسماً ولا طعماً ،
فتبعت مباركاً إلى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت أرعى فيها
كالبعير ، بل رحت أدب على الأربع مثل نبوكد نصر ،

آكل الحشيش ، وأشكر الله ثم الست زبيدة — لأن الكلام
بمناسبة السكة التي عبدتها للمحجاج — فانتعشت وابتهجت حواسي
كلها . فصرت أظن أن الرّشاد والحنبصيص فعلا بالحمى ما
عجزت عنه الكينا . على أنني في رجوعي إلى الأصل ولو ساعة ،
أصلحت ليومين ما أفسده الوقوف على الثنتين .

ويرى أمين تجارة الرقيق فيثور لها ثورة ربحانية يختمها
بعبارات قاسية انتقى منها : « أن من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان
لا يستحق لقب إنسان ، أجل ، وإن أمة لا تستنكر النخاسة
لأذل في عين الله ممن لا يعرفون الله وأحط في نظر العالم المتمدن
ممن يعبدون الحجارة ، ويأكلون لحم الإنسان » .

ولما رأى عدن وقد تقلصت عنها الروح العربية ، وقف
وقفة أشعيا وأرميا يسأل عن الأعماد الدارسة ثم لم تفارقه حكمته
فقال : « ولكننا في زمان سيده المال وحاكمه الاقتصاد ، ومديره
الأول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم إلى وظيفة
صغيرة في معمل هذا الزمان الأكبر » .

ثم تعاوده نوبة التنبؤ فيهتف : « ولكني أخشى والله من يوم
يعم فيه البلاء فينهض الشرق — الشرق العاقل ، والشرق المجنون ،
والشرق المتغصب والشرق المتساهل — ينهض نهضة واحدة على
المدنية الأوربية كلها . بحذافيرها ، لأنه لا يرى فيها غير سيئاتها

غير الشره والشهوات ، والاستثثار والمنكرات . بودى إذن أن تأزف تلك الساعة ، أن يعدل الأوربي ويعقل الشرقي ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، ويتتفع الواحد بالآخر ومنه .

وقد أراح سلطان لحج فيلسوفنا الريحاني من الكلام عن التعصب الذي حاربه أمين طول حياته . فقال فيه أشياء كثيرة . وفي مطلع الجزء الثاني يعدنا أمين بالصراحة كلها على شرط أن يكون فيها دائماً شيء من الفائدة أو الفكاهة . فمن فكاهاته الطريفة في هذا الجزء وصفه رجلاً اسمه مسفر : « مسفر هو مدير الحملة ورئيس الخدم ، وهو في شكله نكتة مضحكة جداً قد لا تليق في مجالس المتمدنين . وجه عفن وهو يظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء . فهل يصلح الماء والكيمياء أنفاً تسطح على خديه ، وفماً تطاول إلى أذنيه ، وجبيناً داس بشعره حاجبيه ، وعيناً جاءت من القرد إليه ؟ أما لبسه فهو آية في البلاغة والإبداع . لا يعرف أنجدي هو أم حجازي ، أيماي أم عراقي . حذاء مرقع تخض رجله فيه ، وسروال كان أبيض لا تظنه غسل في عهده أو في عهد أبيه ، فوقه معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركي ، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والأسياخ ، إلا أنه عندما يركب على بعيره الأسود فوق أحماله ، يبدو ككيس من الأكياس .

إن للمعطف الذى كان يلبسه مسفر جيوباً هي دكان
 بما حوت . أتبغى خيطاً وإبرة وزرّاً ، أتبغى ملحاً أو بهاراً أو
 شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ أتبغى رقعة تمسح بها فنجاناً
 أو تضمّد بها جرحاً ؟ أتبغى قلماً وورقاً لكتابة ؟ سمعاً وطاعة .
 دهشت الدهشة الكبرى ولم أتمالك أن ضحكت عند ما
 أشار إلى رأسه كأنه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . ثم أخرج
 من « دكانه » مرآة صغيرة قدّمها لى لأرى وجهى وأحكم وضع
 عقالى قبل الرحيل .

هوذا حقاً أقبح خلق الله صورة وأجملهم نفساً وذوقاً . فقل
 تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ، فهو إذا مسح الإنسان قرداً
 يهبه من الجمال الخلق والروحى ما يندر فى يوسف الحسن وزين
 العابدين .

ولا تظن أن الأستاذ لا يحسن المدح بل اقرأ ما يقول فى
 ذمة الأعرابي : « وأية ضمانة يقدمها البدوى للتاجر ؟ قسمه الله .
 فهو إذا غاب عشر سنين وعاد إلى الكويت وليس معه غير
 جملته ، يجرى به إلى التاجر قائلاً : هذا حلالك . وإذا مات
 الأعرابي قبل أن ينبى ما عليه ، وكان قد نما ماله ، أى مواشيه ،
 يجرى أحد أبنائه أو أنسابه بما يكفى منها لتسديد الدين أو بعضه
 فيقدمه للتاجر قائلاً : هذا حلالك من فلان . ترحم عليه . »

وفي الكويت يتدخل أمين لإصلاح ذات البين بين نجد
والكويت فينجح ويحييه العاهل السعودي : « أما مسألتنا مع الكويت
فهذه تحل قريباً حسب رغائب الجميع ، وعلى أحسن ما يكون
إن شاء الله »

ويبلغ الريحاني البحرين فيقف عندها وقفة المؤرخ المحقق
فيقول إنها مهد الحضارة والشرع ، وإن العرب والفينيقيين من
أصل واحد ، وإن في خليج العجم صور وحيل كما في فينيقيا ،
وبعد أن يجول ويصول يقول للقارئ : « قد انتهجت في كتابة
هذه النبذة ما أظنها الطريقة المثلى في التاريخ ، فغربت الحوادث
واخترت منها الأعم والأهم ، وعلقت عليها في بعض المواقع تلميحات
للصورة الذهنية ، صورة المكان والزمان والأحوال ، واجتنبت ،
أولا وآخرأ ، الإطراء والإطناب ، فوصفت الرجال بما تمليه أعمالهم
على المؤرخ .

إن التاريخ هو غير السجع . يجب أن يكون للتاريخ عينان ،
وعقل ووجدان . ولا بأس إذا كان له شيء من البداهة والتصور
أما القلب فلا حاجة لي فيه ولا يجوز . إن التاريخ الصادق هو
شاهد لا قلب له . »

وبعد أن يتبسط في الكلام على البحرين وحالتها السياسية
راح يبدى آراءه المبنية على ما رأى وشاهد في هذه الرحلة : « وقد

علمت مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها أن بلية العرب الكبرى - كانت ولا تزال - هي التزوع في كل قبيلة ، بل في كل عشيرة ، إلى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه في بعض الأقطار المذهب الديني . لا يخضع العرب من مبدأ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه في بعض الأقطار المذهب الديني . لا يخضع العرب بعضهم لبعض إلا كرهاً ، ثم يتزعون إلى السيادة المستقلة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً . الجاهل أيها الأدباء هو عدو التضامن ، والجاهل المسلح أيها الأمراء هو عدو كل رقي وعمران .

ثم يتوجه إلى الإنكليز بالنصح فيقول : إن السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب . هي تضر بمصالح بريطانيا العظمى ليس في البلاد العربية فقط بل في الشرق أجمع ، وتضر بالاسم الإنكليزي وكل ما يرمز إليه من أدب وعلم وكرم أخلاق وسياسة .

ويدخل العراق فيصف وصواه إليها بطرافة وقومية ربحانيتين فيقول .: «عند ما وصلنا إلى البصرة صعد إلى الباخرة موظفو الجمر والكحة والشرطة وأكثرهم من الهنود . . . وكنت قد أرسلت تلغرافاً من بمباي إلى صديق لي في الديوان الملكي عليه

يأمر في البصرة من يلاقيني ليهديني في الأقل إلى محطة سكة الحديد ، فوجدت نفسي ، ولا أحد يسأل عني ، أغرب في هذا البلد العربي القديم مني في كارتشي الهندية ، وأنا العربي الذي قضى الأيام والليالي ويطالع الحريري والجاحظ ، ويطحن كريات دماغه في طواحين الكسائي وسيبويه . أراني قد نزلت من الباخرة بين قوم لا أفهم لغتهم . فيكلمني الحوذي بعربية يضطر أن يترجمها إلى شيء من الإنكليزية يفهم . هو أيضاً هندي . ساق جواده الأعرج يجر عربة مكسورة ، وفيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني .

وتدال العقبات ويبلغ الريحاني بغداد ويلتقي بفصيل فينسي آلامه وتباريحه . تسقط الكلفة بينه وبين الملك الشاب ، وبعد أن يجلسا متقابلين في آداب شتى يصف لنا أمين فيصلا : « الملك فيصل أقرب ملوك العالم اليوم إلى الديمقراطية . لا أظن أن ما يسود الملك فيصلا اليوم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا أظن أن تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة ، وذاك السكوت الذي يسبق الكلام إلى القلوب . إنه في ما لمع من نجم سعده وهوى في السبع السنوات الأخيرة ، لمن الأمراء القليل عددهم في العالم اليوم . فقد دالت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه ، فلم

يتمكن لسرعتها من الانتفاع بها .

« هو ذا أمير عوى كريم فى دائرة خضراء من الشهرة ، دائرة حمراء من السياسة الوطنية ، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية ، وهذه لعمرى حقيقة مآذب الغم - مآذبة الشهرة التى يتلوها وجع الرأس ، ومآذبة النصر فى الحرب يتلوها فشل فى السياسة ، ومآذبة الكرم العربى الممدودة فوق ضريح المطامع العربية » .

إن فى هذا المقطع لأصدق تصوير للحالة التى كان الملك فيصل يتخبط فيها ولم يستطع الخروج من دائرتها ، حتى كانت مأساة موته ، وكم فى الموت ، أحياناً ، من راحة ، ولكننا نسخط دائماً على الموت ولا نقدر له تلك اليد البيضاء التى يمددها إلينا فى الساعة الحرجة .

وبعد أن عرفنا الرحالة إلى الكثيرين من رجالات العراق قال عن المس بل : « هى شبه وزير دار الانتداب ، فينبغى لى أن أفسح لها فى هذا الفصل مجالا . ولا أظن أصحاب المعالى الوزراء يستنكرون أو يعترضون : جاءت - المس بل - الشرق الأدنى سائحة طالبة علم ، وجالت فى البلاد العربية وآخت العربان . تعلم من أمور العراق وعشائره ومشايخه وأشرافه وتجاره والسياسيين فيه ما يندر أن يعلمه سواها . امرأة طويلة نحيلة

جليلة ، تكاد تكون مجموعة أعصاب وأفكار ، هادئة الإشارة
واللهجة ، هادئة البادرة ، يتغلب في حديثها العقل ، وتتغلب
في عقلها السياسة . وهناك شيء من القلب ، بل أشياء ناضجة
مستوية . طريقة المس بل السياسية قديمة ، وهي مع ذلك لا
تركن في الأمور لا لعقلها دائماً ولا لقلبها . لا تجبه العراقيين
دائماً بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة ، بل تجيئهم مراراً
وهي تحمل هدية بدل القضيب هوذا قلبها عربون
إخلاصها أيها الزعيم الوطني . هي أم المؤمنين يقيناً . وإذا رفضت
الهدية والمشورة ، إذا أبيت النصيح والامثال ، فهوذا السجل
وفيه سيرة حياتك منذ دبيت ودرجت إلى يوم وقفت مستعطفاً
أو محتجاً في دار الانتداب . .

ولا يحرم أمين شعراء العراق ، وكلهم أصحابه ، من فصل
خاص بهم ، وكذلك فعل في (قلب العراق) وقد أريتكم
نموذجاً من نقده . والآن يطيب لي أن أنقل لك أسطراً أفتح
بها الفصل المعنون (أصحاب القوافي) ، قال : « لولا الشعراء في
العراق لستمت السياسيين ، ولولا السياسيون لفررت هارباً من
الشعراء ، وبكلمة أوضح لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين
بيد أني مشيت مثل البهلوان على جبل الاحتفالات والتكريم ،
أحمل بيدي خيزرانة التوازن وفي أحد طرفيها أكرة السياسة وفي

الآخر قيثاره الشعر .

أما رأيه في شعرنا فقد عبر عنه بقوله : « إن الباحث اليوم في أحوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى أن للسياسة والدين الشأن الأول في الشعر ، بل في أمورهم كلها . أجل إن في مصبغتي السياسة والدين تصطبغ الأقوال والأعمال والآمال ، فيندر الشعر الصافي والنثر الأدبي في ما ينظمون ويكتبون » .

ويعر على المدرسة مرة عجلي فيقول : لم يبق إذن غير المدارس نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية ، وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة . هي البودقة التي تتكون فيها الروح الوطنية الجديدة ، بل هي سياج الوطن ، وفيها عز الملك وشرف الأمة . ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في التكوين ، إلا إذا كانت البودقة واحدة لا تتغير في تغير المكان والمذاهب واللغة . إن أمة تعددت شعوبها ومذاهبها الدينية ، ولغاتها لا يتكون منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهما كان جيشها ، ومهما كانت ثروتها ، إلا إذا أسست الحكومة فيها مدارس عامة ، مجانية ، لا مذهبية ، تمشي كلها على برنامج واحد ، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة لغة البلاد الأصلية .

وختم هذا الكتاب الخالد بالكلام عن الوحدة العربية التي هي نقطة الدائرة فيه حتى خلص إلى القول : إن في البلاد العربية

اليوم أربعة ملوك كبار ، وإن في نفسية الرعايا رعاياهم نصّاً على شخصية أولئك الملوك وشرحاً على حالة تسود سياستهم في البلاد :
« رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

رعية الإمام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف .

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ، ولا تطيع إلا مكرهة .

فن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحق أن يسود العرب ؟ » .

لقد أعرت كتاب ملوك العرب هذا الاهتمام لأنه أول كتب أمين في الرحلات ، ولأنه ملخص لما في كتاب تاريخ نجد الحديث ، وفيصل الأول ، وقلب العراق . وقد أقرأتك ، ما قاله أمين في وصف الملك فيصل ، فهناك الآن وصفه للسلطان عبد العزيز : «ها قد قابلت أمراء العرب كلهم فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً أو مبالغاً في ما أقول ، فهو حقاً كبير ، كبير في مصافحته ، وفي ابتسامته ، وفي كلامه ، وفي نظراته ، وفي ضربه الأرض بعصاه ، إن الرجل فيه أكبر من السلطان ، وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالألقاب . . . غريب عجيب . إلى أن قال : إني سعيد لأنني

زرت ابن سعود بعد أن زرتهم كلهم . هو حقاً مسك الختام . »

* * *

قال الأستاذ إسعاف النشاشيبي بعد الاطلاع على كتاب « فيصل الأول » .

« قال علي بن عبدة الريحاني : حضرني ثلاثة تلاميذ فجرى لي كلام حسن ، فقال أحدهم : حق هذا الكلام أن يكتب بالغوالي على حدود الغواني . وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بأنامل الحور على النور . وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بقلم الشكر في ورق النعم » .
 والله إن تلاميذ الإمام الريحاني إنما يصفون بأقوالهم هذه كلام فيلسوف الريحاني في فيصل .

قلب لبنان

كما خصصت كتاب ملوك العرب بتلخيص مطول كذلك فعلت في قلب لبنان ، وما دعاني إلى هذا إلا أن الريحاني نحا فيه نحواً لم نره في كتب رحلاته الأخرى . فهو في هذا السفر النفيس شاعر أكثر منه مناضلاً ، ولكنه في كل حال لم يخلع سيفه ورمحه .

يصح في كتاب (قلب لبنان) لفيلسوف الفريكة ما قاله

ابن المفقع عن البلاغة ، أى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يعمل مثلها . فكتاب قلب لبنان رحلات صغيرة فى جبالنا هكذا يقول العنوان . أما ما وراء العناوين فلا يستطيع الناقد الإشارة إليه كله لأن الإحاطة به تقتضينا كتاباً أضخم منه . فالاستطرادات والوخزات ، والغمزات ، والاستنتاجات تفاجئنا فى كل رحلة . فهى تهض من مكانها فى كل فصل بل فى كل وجه ، وأستطيع أن أقول فى كل فقرة ، لأن الريحانى لبق فى غمز القناة ، إنه يريد أن يعمل بقول الشاعر :

وكنـت إذا غمـزت قنـاة قوم كسرت كعوبها أو تستقيها
ينقض أمين على المناسبة انقضاض الصقر على فريسته
فاذا هى بين مخالبه وبرائته . فما أقل من يستطيع أن يكتب فصولاً رائعة فى مواضيع تافهة كهذه ، ثم يجذبك إليها فلا تدع الكتاب ، وهو ستمائة صفحة من القطع الكبير ، حتى تقرأه من الجلد إلى الجلد .

وإننا نشكر العناية التى كان يؤمن بها أمين إيماناً مطلقاً ويتعبده لها بلا شروط ولا مراسيم معتادة ، كما قلنا فى كلامنا عن الريحانيات ، بل قل طبقاً لمراسيم وضعها هو لنفسه ، كان يصلى يومياً على بلاطة لا تزال على الشرفة حيث وضعها . قلت نشكر العناية ولم أقل على ماذا نشكرها عن أمين نشكرها

لأنها أبقت بعده أخاً أديباً فاهماً يرعى بعين يقظى آثار أخيه
الحالدة ، ويصلرها للنرية وبالشكل اللائق بها . فالأستاذ
ألبرت ريحاني شقيق الأمين هو الذى أهلى إلى المكتبة العربية
هذه التحفة الطريفة فى أدينا الحاضر . فهذا الكتاب اليتيم
— كما يسمى الغربيون الأثر الذى يظهر بعد موت صاحبه — شب
فى حجر وصى أمين حى الضمير فكان أحنى عليه من الأب .
ولهذا اليتيم أخوة آخرون يدرجون فى حجر الوصى ألبرت
وسيؤتون حقوقهم ، فى حينها ، كاملة غير منقوصة . فليطمئن
قلب أمين ، فكل ما خلف فى حرز حتى قصاصات الورق
وما خطت عليها يده من حواش ونظرات واحتجاجات .

إن كتاب « قلب لبنان » من طراز كتاب ملوك العرب ، وفيصل
الأول ، وقلب العراق ، وصف فيه أمين جبال لبنان ووهاده ،
أوديته وقراه ودساكره ، صبخوره وأشجاره ، رجاله ونساءه ،
خواصه وعوامه ، قلاعه ومعابده ، قديسيه والمكارين فيه .
ألم بتاريخ لبنان من أقصى ظلماته إلى عهدنا هذا ، فحقق ودقق
مخالفاً هذا ، وموافقاً ذاك من سياح وأثريين ، وعلماء وفلاسفة ،
لا يعنيه إلا أن يقول ما يعتقد أنه يحدثك بصراحة ووضوح
عن كل شيء حتى نفسه ، لا يكتملك من أسرارهِ إلا ما لا يعنك
أو لا يفيدك . يسرد كل ذلك بلغته الهيئة اللينة ، ذات الموسيقى

الشعرية . ولكنك لا نستسلم لموسيقاه حتى توقظك نكته البارعة
 اللاذعة . يملك على أجنحة خياله إلى الزمن الأبعد فيريك
 ذلك الزمان واضحاً بما يكسوه من الصور الجديدة الفتانة ،
 فتحسب أنك تعيش فيه وأنت بين قومه الغابرين . يصور لك
 أم أمين ، رحمها الله ، كيف كانت تشيع ولدها الحبيب عند
 كل رحلة ، فمحوطه برسم الصليب على وجهه ، وعلى جسمه
 كله ، ثم تسلمه أمانة للعنراء حبيبته . ولا يحرم أمين مكاربه
 وبغلته التي اسمها (محبوبة) من وصف دقيق ، وتصوير يبلغ
 التمام ، ثم يقص عليك ما كان يدور بينهما من حديث فيريك
 نباهة وبلاهة هذا المكارى الذى يتأمر حيناً ويطيع أحياناً .

يذكرنى أمين فى كثير من مواقفه فى رحلاته بأحمد فارس
 الشدياق وكتابه الفلرياق ، فهما من طراز واحد فى السرد وإن
 اختلفا فى الاحتجاج . احتجاج الشدياق صاحب صارخ ، رائحة
 أحماضه حريفة ، واحتجاج أمين فولتيرى ناعم ، يمعن فى
 النكاية كالشدياق ولكنه لا يستفز . قد رأيتهما يتفقان فى أمور
 كثيرة حتى فى الراهب (الأخ حنا) فلكل منهما راهب يسايره
 ويماشيه ، ولكنهما يظلان مختلفين أسلوباً ، ونكتة وظرفاً ،
 فهما لوان مختلفان فى أدبنا العربى ، وإن كتب كلاهما أشياء .
 تخصصه يدور عليها كتابه .

فكتاب قلب لبنان يعرفك ، في معرض الحديث ، على مؤلفه في لبنان فقط ، يريك كيف نشأ أمين تلك النشأة القروية الساذجة ، فكان لها أبعد أثر في تكوين شخصية أمين الإنسان . إن أمين الإنسان موضوع خطير يستحق اهتماماً كبيراً ، وهذه الإنسانية قد ظهرت واضحة بارزة الخطوط صارخة الألوان في وصيته ، كما ظهرت من قبل في جميع ما كتب . كان أمين نصيراً للحق في جميع مواقفه ، يكره النفاق والكذب . والرياء والدجل ؛ يخاطب الملوك والقادة بصراحة تدل على شخصية حرة تحترم الإنسانية في جميع البشر وتقديسها .

يتحدث أمين في (قلب لبنان) بقلم طليق من كل قيد فلا يحيد مقدار شعرة عن خطته المعلومة ، يطرى المكارم ويعالج المساويء بالسخر منها والاستهزاء بها . وهو في كل ذلك لا يتنكب عن جادة العذر لمن يلوم ، ولا ييأس من الصلاح والإصلاح .

وكتاب قلب لبنان معرض تاريخي لشعوب لبنان ، والملوك والقواد والقاتحين والعلماء الذين جاءوا لبنان غازين ومنتقبن وباحثين ، وهو يشارك جميع هؤلاء في نقد شخصياتهم وسياساتهم وبحوثهم . فمن وصف في إصلاحى ، إلى تهكم لاذع

إلى آراء فلسفية إجتماعية أدبية . يربط بالحاضر فبيننا تراك معه
 فى أعمق الأعماق إذا به يطير بك إلى أبعد الآفاق . ينقلك
 بلمحة خاطفة من أبعد أبعاد التاريخ إلى حيث نحن اليوم
 مستعيناً على ذلك بنفسيته وشاعريته وعلمه وثقافته الواسعة ،
 ولا تعجب أن رأيت الريحانى فى قلب لبنان مؤرخاً ، وكما
 يكون التاريخ اليوم ، فأمين كان ذا مواقيت لا يتخلف عنها
 ولا يتأخر ، وهو ذو مكتبة ذات قيمة كبرى وخصوصاً فيما
 يعنيه من تاريخ الأمة العربية ، فخزائنه تحتوى على أصدق
 المراجع وأدقها فى هذا الموضوع ، وإذا أضفت إلى ذلك
 سياحاته العديدة وملكته النقدية التى مكنته من تمحيص ما رأى
 وسمع ، عرفت قيمة كتب رحلاته ، فهو لا يكتب فصولاً
 خيالية ليقول ما شاء وكيف شاء..

وإذا قلنا هذا فلا نغنى أن تلك الكتب وقلب لبنان تاريخ
 جاف لا خيال فيه . لا يا سيدى ، إن فى قلب لبنان فصولاً من
 الشعر المنشور تعد من روائع الشعر المنظوم ، وأمين كما علمت
 هو أبو هذا اللون من الكلام فى أدبنا العربى ، عبر به عن
 أفكاره حين كان رومنطيقياً ، صوفياً ، وهو لم يطلقه الثلاث حين
 أصبح كاتباً عاملاً يسعى فى الأقطار العربية لتكوين الجامعة
 العربية التى لم تقرر عينه بها حياً ، وإن ارتاحت إليها نفسه ميتاً .

فإذا قرأت هذه القصائد المثورة في قلب لبنان عرفت أن أميناً رومنطيقى بالمعنى الآثم يهب الحياة للصخور والأشجار والأودية ، والحوادث التي لا تلهم شيئاً . إن هذه الحوادث تحيا وتتحرك تحت قلم أمين كما كان يحيا الحجر تحت أزميل ميكالنج ، والقماش تحت ريشة رافايل . اسمع كيف يتحدث عن الضيافة اللبنانية ، إنه يبدأ هكذا :

« قال فكتور هيغو : الضيافة مفتاح الإخاء الإنساني ، والشعوب المضيفة عماد الإنسانية . وقال كاتب إغريق قديم : الحرية وحسن الضيافة هما عنوان العظمة في الشعوب .

فالشعب اللبناني العربي في عرف الإفرنسي الشهير هو عماد الإنسانية لأنه مضيف ، ولكنه في عرف الكاتب الإغريق لم يبلغ من العظمة إلا نصفها أو بعضها أي القسم القائم بحسن الضيافة . أما القسم الآخر ، أي الحرية ، فهو لا يزال مفتقراً إليه . هو لا يزال ينشد الحرية ويتغنى بها ويسلي نفسه بخيالها وقصائده شعرائه فيها .

ليس أجمل من لبنان في جبال الأرض . وإن الله ليكلاً هذا الجمال ، ويصونه في شكله كما في جوهرة فلا خوف عليه في الحالين . أما الشعب اللبناني فمن يكلاه يا ترى ، ويصونه في حسن . ضيافته ؟ الحرية .

الضيافة مع الحزنية تلوم ، أما بدون الحربة فالشك في دوامها أقرب إلى الدهن منها اليقين .

وهنا أيضاً لم يدرك أمين ما كان يصبو إليه من استقلال وحرية للبنان. مات المجاهد في سبيل الحرية ، ثم عاشت بعده ، وهكذا يحيا الخالدون .

وبعد ، فلم يمتعنا أمين في « قلب لبنان » بفصول رائعة من نقده الأدبي العذب كما فعل في ملوك العرب وقلب العراق . ولكنه انتقد (على الماشى) كما نقول ، فلذع وتهكم . فإذا قبض لك أيها القارئ العزيز أن تقرأ هذا الكتاب فلا تظن أن الريحاني يكيل المدح للناس بالمد ، أرجو منك أن تقرأ ما بين السطور لتدرك ما يقول أمين ، وما يقصد ، وما يعنى ، ولا يغرك ظاهر الكلام . ثم لا تظن أنى عرفتك بهذا الكتاب معرفة كاملة ، فهذا لا يتم لك إلا إذا اطلعت عليه فتعرف الريحاني ومن شاء أن يعرفك بهم كما عرفهم هو ويريد أن تعرفهم أنت . ولا يليق بنا أن ندعوك إلى مأدبة أمين الخافلة . بكل طريف شهى ثم لا نريك ولو لقمة صغيرة منها ، فدونك يا عزيزى ، هذا الصندويش ، فنحن في عصر العجلة ، وقل فينا من يشتري كتاباً يتمتع هو به ويبقيه لنريته من بعده . إذن هذه بعض نتف من شعر أمين المشور ، وأننى أذكرك بأن

اللغة الشعرية منشورة في صفحات الكتاب كلها وقلما خلا وجه من معنى أو صورة شعريين طريفيين ، اسمع قليلا من قصيدة الأرز :

« إيه ربة الأشجار ، وسيدة الجبل الجبار :
أنت الرافعة أعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور
الدكناء .

بنت الجديدين وأخت القمرين ، حدثيني .
حدثيني وعلمي ، وارفعيني إلى علياء إيمانك .
حدثيني عن ربح الشمال .
— تجيثني مولولة نائحة ، فأوقفها لتستريح ، فتستحيل
أنفاساً عطرية .

— حدثيني عن الغيث إذا همى .
— هو يرقص على الصخور حولي ، فتقهقه هازئة ،
ويضرب على أوتار قيثارتى فتسمعه أغاني البلابل والأمواج .
— حدثيني عن العواصف .

— هي تصعد هائجة من الأودية ، وتهبط مجلجلة من
الآفاق ، فتدق حولي طبولها ، فأفتح لها قلبي ، فتدخل ثائرة ،
ثم تسكن وتنام ، تحت أجنحة السلام .

— حدثني عن الصخور .

— هي المحدثه قبلى وبعدي . منها تربى وإليها مصيرى .
وهى فى حياتى قرة عيني ، وزينة نفسى ، بل هى هيكلى
الحالده ، العامر اليوم بى ، السائل غدا عني .

وعلى ذكر الصخور ننتقل بك إلى قطعة من هذا النشيد
الحالده : نشيد الصخور . خبرنا أمين : أن أحدهم سأل جده
المطران باسيل عبد الأحد : « ما فائدة الصخور ؟ فأجابه فوراً :
« الصخور عظام الأرض ، وكأني بأمين نظم قصيدة للصخور
إحياء لذكرى هذا الجلد الأبعد ، فاسمع كيف تدب الحياة
فى الصخور تحت قلم الشاعر الملهم ، قال :
« والصخور ؟

هل وقفت مرة بين الصخور ، تتأمل تكوينها وأشكالها ،
ومعاني جمالها وجلالها .

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهمة إلى ما وراء
العمد والخلجان — إلى روح الكيان ويد الزمان ؟
هل فى شموخها غير العز ، وفى روعتها غير الصولة ،
وفى هولها غير الأخطار ، وفى رسوخها غير القوة ، وفى
تخازينها غير الضعف ، وفى صفوفها غير الفوضى ، وفى
منعرجاتها غير الجهل والحيرة .

الصخور الشاهقة المحلقة ، الصخور الرابضة والواتية
والهاوية ، والصخور المانعة الواجمة المنيرة ، الصخور المتكاثفة
والمتخاذلة هل وقفت مرة تتأملها ، وتحاول الدخول إلى قلبها ،
إلى السر المكنون فيها ؟

إن في قلبها النواة التي كانت تموج تحت الأمواج ، وفي
قعور البحار .

إن في قلبها جرثومة الحياة الأزلية الأبدية .

إن في قلبها الذرة السرية التي تحيا بالتحطيم ، فتغدو
غذاء وشذى في الأشجار والأزهار .

إن في قلبها سجن الأنانية وصمت الأحزان .

إن في قلبها الرمز الخالد لسوط الزمان .

إن في قلبها رسالة التصعيد حتى في الجلاميد .

من قعور البحار إلى أعالي الجبال من الظلمات الموحلة
المجرثمة المطحلبة ، إلى أوج النور . والتباور والصفاء .

هذه مرحلة الصخور بل ملحمتها .

وهل في شموخها غير العز والمجد ؟ إن فيه ضرائح
التضحيات ، وأحاجي الموت والحياة .

وهل في روعتها غير الصنولة والجلال ؟ إن فيها الصبر

القائم ، والعزم الواجب ، والصمت الدائم .
 وهل في هولها غير الأخطار ؟ إن فيه نبأ البراكين والسعير ،
 وقصة الزلازل والأعاصير .

وهل في نخاريبها غير الدليل على الضعف والوهن ؟ إن
 فيها الدليل على عطف لا يزال في قلبها حيا ، وعلى حنان
 لا يزال ندياً . إن في نخاريبها بيتاً للعصفور ، ومأوى للحلزون ،
 وإن فيها نايات للرياح .

وهل في صفوفها غير الفوضى ؟ إن فيها تتمثل أوليات
 الحياة في التحرير والتقييد ، وسنن الحياة في التنوع والتوحيد .
 إلى أن يختم قصيدته هذه بقوله : هي الصخور الحافظة
 للأرز الأبواب ، الضاربة حول الأرز الأطناب ، الحاملة
 عرش الأرز على المناكب والرقاب . .

وهنا يجب على أن أقص عليك بإيجاز خبر تحول أمين
 من شاعر صوفي روحاني إلى كاتب وشاعر نضال جسداني .
 ساء الفيلسوف أن يظل الشرق غافياً ، والناس يضجون حوله
 فتار على الشعر الباكي لا للحط من مقام شاعره الأمثل بل
 للنهوض بأمة كاد يقتل رجولتها ذاك الشعر المنحث .

كان أمين في فجره الأدبي يخاطب الدوري والغوري .
 ثم أفاق من تلك الغفوة الهائلة ليخطب الناس في سفح الأهرام ،

يوم كرموا جهاده ، فقال شعراً منشوراً بلسان الشرق بدأه
هكذا :

« أنا الشرق .

عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها
طيارات . »

هذا ما قاله منذ ثلث قرن ، كما مر بك ، وها نحن نرانا
اليوم فى أمس الحاجات إلى ما دعا إليه أمين وتمناه .
وإذا قرأت « قلب لبنان » ترى الريحانى لا يبرح دائرته
تلك ، فهو هو فى عقيدته ، تجلبها أينما طلبتها ، فأمين لم يبرح
نقطة دائرة فكرته .

تأمل كيف يخرج النقد اللاذع حين يتحدث أثناء
مروره بأ (المشنقة) حيث حفرت فى صخرة صورة صراع
أدونيس مع الخنزير البرى ، فقال يغمز قناة الابتداب :
« اشغل غليونك ، وافتح عيون خيالك . احرق من تبغ
هذا الزمان على ذكر أدونيس فتى الفتيان ، أدونيس المعبود
الأعلى ، إله الحب والألم والبعث والخلود . وهل هناك مفر
وانعتاق ؟ هل يخلو الحب من ألم ؟ وهل ينجو الألم من الموت ؟
وهل يحرم الموت النعمة الكبرى : — البعث والخلود . »
« فلو كان أدونيس متجسداً اليوم ، ومقيماً فى هذا الجبل

البناني لرأى الخنزير البري في أسواق المدينة وفي دوائر الحكم .
 لا في الأودية والغابات ، ولصرع في قتاله كما صرع الرؤساء
 والزعماء في هذه الأيام . على أن صرعة الإله لغير صرعة
 السياسيين ، كهاناً كانوا أو تجاراً . ولا عجب . إن صرعة
 فيها شجاعة الإيمان والتضحية لثمر روح التضحية والإيمان
 في أجيال من الناس . أما الصرعة التي فيها إرادة غاوية ،
 ذات عين لاوية ، يقاد صاحبها بدعوة إلى مآدبة ، أو برشوة
 ووسام ، فماذا تثر يا رعاك الله . »

وعلى ذكر كرونس إله الفينيقيين ذي الثماني أعين يقول
 أمين : « أما العيون فإن لنا منها ، نحن اللبنانيين ، أكثر مما
 كان لكرونس إله الفينيقيين . إن لنا من الخيال والأحلام
 والأوهام ، مائة عين وعين فري الفرديس ونحن ناثمون ،
 وننام ونحن ماشون إلى الهاوية . . . »

إن الريحاني في قلب لبنان كاللاعب بالسيف والترس ،
 يضرب ويتلقى بخفة ورشاقة مستعيناً بجميع واهبه ، ولم يسلم
 من لدعه شيء حتى أسماء الناس .

أعجبته ضيافة سابا بطرس أبريائوس وحرمة ، وأعجبته
 كلمة (حرمة) وفضلها على زوجة وعقيلة وقرينة ومدام فقال :
 « ليس في (الحرمة) ما تشتم منه القيود — عقيلة الرجل — مصفدته

قرينته . في الحرمة احترام ومحرم ، وفي الحرمة عروبة صافية .
ولكن اسم زوجها إبريانوس ؟ ماذا تفعل به يا رجل ؟ ومن
أين جاء إبريانوس ، إن هذا الاسم ليقتل كل أمل بالوحدة
اللبنانية اليمانية . على أن هذا الرجل ذا الأسماء الثلاثة الفظيعة —
سابا بطرس إبريانوس هو خير الرجال . يقرى الضيف ويضرب
بالسيف ، ويبني بيته ، مثل صنوه في (خولان) ، ومثل
إخوانه النور بين الصخور إن الحياة لا تصفو لأحد
من الناس : وإن صفت في نبعها فقد تتعكر في جرن العمادة .
إن ضجة أمين حول « سابا بطرس إبريانوس » لا أثر
للكلفة فيها لأنه ، رحمه الله ، كان يكره هذه الأسماء
الطائفية حتى التطير ، وقد يكون هذا التأثير نجم في نفسه
منذ نومه مع والدته ، والغرزوزية الحسنة ، في كنيسة كفيفان
وفاء لنذر أمه التقية ، فشفيح دير قديس كفيفان اسمه
قبريانوس . . .

رحم الله من ربي الريحاني وربانا ، فقد جرت الرياح
بما لا تشتهي السفن ، ولولا المشيئة التي يحيرنا ممشاها لما جاء
(قلب لبنان) كتابا فريداً .

المغرب الأقصى

سار الريحاني من لبنان مهد الأساطير إلى الجزيرة سرير النبوة حيث درج وشب النبي العظيم، ثم فتح الدنيا دينه الجليل، ودانت لسلطانه وسلطان خلفائه أمم الأرض. وكأن الأمين الذي لم يتنكر قط لرسالته العربية أبي أن يحرم المغاربة منا مما جاد به على المشاركة، فشمر الأردن ومشى إلى المغرب الأقصى.

وعاد من ذلك الفردوس ليكتب عنه هذا الكتاب الضخم الحامل بين دفتيه تاريخاً قديماً وحديثاً. وكأنه خاف على كتابه من القراء الذين تعودوا أكل السندويش فقال في المقدمة يحذر قارئه :

« فلا يزال هذا الكاتب صديقك القديم يقول كلمته ويمشي ، مشيت أنت معه أو وقفت وتخلفت ، فهو لا ينتظر ، وهو لا يتوقع من أحد الرفقاء - القراء - أن يماشيه حتى النهاية . »

وأخيراً ختم هذه المقدمة بما يأتي : « إن في المغرب طبخة يسمونها الحريرة ، هي شبيهة بالحساء ، ولكنها تشتمل على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير ، فيرسب الأكبر في قعرها ،

فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل في احتسائك إلى القمر —
إلى النهاية .

فإلى قعر الحرية — إلى النهاية .

حقاً إن كتب أمين لا تعطيك المتعة كاملة إلا إذا قرأتها
برمتها . فأراؤه وضحكاته ، وقرصاته ولسعته تعثر بها أنى
اتجهت في كتابه ، ولكن (التاريخ) الذى لا يستطيع أن
يهمله ، فى كتاب كهذا ، قد يعرقل حركة السير . إنه شر
لا بد منه لمن يكتب مثل هذه الرحلات ، ولكنك فى قراءة
ما يكتبه أمين فى التاريخ لا تجمد ولا تمل ، لأن فى خرج
هذا (المغربى) الحديد عقاير مختلفة ، فهى كفيلة بتجديده
نشاطك مهما تبلدت .

يتحدث أمين فى الفصل الأول وعنوانه « من الاستقلال
إلى الحماية » عن تطاحن الدول فى المغرب الأقصى ، ويتعرض
أخيراً لسياسة القروض الهدامة لحرية الدولة فينقل كلمة المؤرخ
جوليان : عند ما وقع الباي وثيقة ذلك القرض حكم على تونس
بالموت ، « فهل يتعظ سلاطين المغرب ؟ وهل يتعظ أمراء
الشرق وملوك الغرب ؟ وهل تتنبه الشعوب العربية ؟ »

ويعبر عن سياسة الانتهاز فى هذا الفصل بقوله : هى
سياسة المطرق والحديد الحامى . اضرب وعجل بالضرب .

وعجل كذلك بالبيان ، اطمئنانا للمضروب ، وإن كان لا يحسن الظن بالضارب »

وإذا ماشيت الريحاني ، ولم تتركه يمشى وحده ، تحظى بتهكمه اللاذع كقوله ، مثلاً ، حين تكلم عن تسمية الأندلس : « فما هي (البنسولا) بلغة قحطان ؟ يقول صاحب محيط المحيط ، الناقل عن الفيروزابادي والمكمل لأغلاطه ، يقول بعد أن يحدد الجزيرة تحديداً صحيحاً : (وإذا أحاط (الماء) بها إلا من جهة واحدة قيل لها شبه جزيرة وبحيش جزيرة . فمن أين جاء المعلم بطرس بهذه البحيش جزيرة ؟ إن كان المعلم بطرس ناقلها أو مخترعها ، فهو يستحق أن يذكر في صلبوات الأب أنسطاس الكرملى المحترم . »

ويرى أمين مدينة (سبتة) فتستيقظ عروبتة ويقول ، ولكن هل نامت عروبتة ساعة من العمر حتى نقول استيقظت ! قال :

« كنت أتوقع أن أرى على شاطئ أفريقيا مدينة أفريقية عربية ، فرأيت مدينة أوربية إسبانية في كل أحوالها ومظاهرها . فنبأ القلب ونخاب الأمل . »

وأمين كما عرفت ، من الكتاب القلائل الذين يجسدون في تصويرهم المراثيات حتى يخيل إليك أنك تراها . يصف لنا

مناظر الأندلس الطبيعية بل كل ما في الأندلس من عمل الله
والإنسان . رأى شيخاً يؤلف من الطين قطعة من الفسيفساء ،
فقال له أمين مشيراً إلى الرسوم أمامه : هذه ؟

فأجابه فوراً : « منها القديم المقلد، ومنها الجديد المولد »
قالها بالعربية الفصحى فأعجب بنطقه أمين وقال : ولكن
الأستاذ من المتعلمين وإن لعب بالطين . . . »
وهنا فليسمح لي صديقي أمين أن أذكره ، أن (الأستاذ
الأعظم) كان أول اللاعبين بالطين ، فجاء في تماثيله عباقرة
ومجانين . . .

وما أعجبنى من مبتكراته الكلامية في هذا الكتاب تعبيره
عن ابتسامة دليله الصفراء : « فكانت لهجة دليلي مذهبة بابتسامة
الرضى » وقوله في مكان آخر : « أما المدينة فهي تفدى نفسها بالمال
وأما الديمقراطية أختها بالسفاح ، فإن لها مثل القطط سبعة
أرواح ، فلا خوف على الاثنين ولا هما تحزنان » .

ويحدثنا عن طريقة في سجن المجرمين من أطرف الطرق
ونخيرها وأحدثها ، فكان المجرمين فيها يعيشون أحراراً ، ثم يخرجون
رجالاً فاضلين مستغنين بالعمل عن الإجرام .

. وفي معرض الكلام عن « العرب والبربر » يجدد أمين
عهده للعروبة فيقول : « ووجهة نظرنا هي وطنية إنسانية ،

وطنيتنا هي عربية قومية لا عربية إسلامية . فقد جهرنا بذلك
مئة مرة ومرة ، ولا تنفك نجهر به في كل ما نكتب عن هذه
الامة العربية ونهضتها ، وأشواقها وآمالها إن كان في المشرق
أم في المغرب . وإن لنا في الوطنية غرضاً أكبر فيها . ذلك الغرض
ناشئ عن الحقيقة التاريخية الظاهرة الباهرة ، وهي أن العرب
عنصرهم من العناصر الإنسانية المتحضرة ، العريقة في الحضارة
الناشرة أعلامها في العالم . وإن لها مطالب قومية وأمانى سياسية ،
لا تتجاوز حد تحقيقها إلا لتكون والأمم الأخرى على ولاء تام ،
وعاملة لتحقيق الإخاء الإنساني ، والسلم الدولي العام في
العالم .

وقد كتب في « أشبيلية » فصلاً شعرياً كما فعل في قلب
لبنان وغيره من كتب رحلاته .

ويتحدث عن الفن الأندلسي الإسباني حديث ناقد خير
ثاقب النظر ، فيصف أدق أسرارهِ ، ويكشف للقارئ خبايا
جماله ، ويقول حين يتكلم عن النهضة العربية الثقافية الوطنية
« إنها لا تزدهر ازدهاراً شاملاً إلا بعد أن يخرج الأجانب
المسيطرون من البلاد العربية » .

وبعد هذا يرسم للجزال فرنكو صورة ناطقة مستخرجاً من
ظاهرة ما يدلك على باطنه . وقصارى القول في هذا الكتاب أنه

طاووسى الشكل ، فنصيحى لمن يقرأه - ويجب أن يقرأ -
 ألا يدعه قبل أن يأتى على آخره . فهو يستقل فيه من فصل ممتع
 إلى فصل أمتع . وحسبك أن تقرأ فصل « الريسونى » لتوافقنى
 فى كل ما قلت .

ونبلغ فصل « بطولة الأولين » فنسمع كلمة حر صادق
 ما حابى طول حياته أحداً حتى أعز أحبابه وإخوانه ، قال :
 « ليس فى الفاتحين شعب يضاهى العرب اقتداراً وانتصاراً ،
 وليس فى المتقهقرين من يستطيع أن يشق غبارهم . سقطت
 قرطبة ، فتعددت القرطبات الساقطات » .

ويروى أشياء عن ثورة فرنكو يطيب لك أن تقرأ تفاصيلها
 الغريبة ، وخصوصاً حكاية الجنرال مسكردو وولده التى تذكر
 بجهاد العرب الأولين وتضحياتهم العظمى .

هذا ما حدثتك به هنا عن كتاب المغرب الأقصى ، وقد
 مر بك أشياء عنه فى مواضع متفرقة . إن التلخيص كماء الورد ،
 أما قراءة الكتاب كاملاً ففيها ما يبهج الحواس جمعاء .
 فإلى حديقة « المغرب الأقصى » يا صاحبي .

رضيت من الغنيمة بالإياب

الريحاني الذي مات عن لا شيء من الثروة إلا ١٥ ليرة لبنانية في بنك إسكندر حداد ، و ١٢ مثلها في بنك دي روما ، وخمس ذهبات في جيبه . والريحاني الذي كان يقول لأخته سعدى حين يعطى السائل كل ما يملك : الكفن لا جيب له يا سعدى . هذا الريحاني قد عاد من رحلاته كلها ولم تكن يده السفلى أبداً ، اللهم إلا بعض هدايا : سيف ابن سعود الخاص الذي حارب به ابن الرشيد ، قرابه من ذهب ونصله يرجع تاريخه إلى الفتح الإسلامي في إيران .

وأهدى الشيخ خزعل إلى جلالة عبد العزيز سجادتين يوم كان الريحاني عنده ، فقال الملك : نحن سكان خيام ، أعطوهما للأستاذ الريحاني . اسم إحدى هاتين السجادتين شجرة الحياة ، واسم الثانية الكرة الأرضية . وهناك هدية ثالثة من الطويل العمر وهي فرس أصيلة مسماة نوره باسم شقيقته .

وأهدى إليه سلطان الحج صندوقة نحاس مزركشة ، و « مداعة » طول نربيجها ١٨ قدماً .

وعرض عليه الملك حسين الألقاب والأوسمة فأبى ، ولكنه

قبل منه خنجراً - شريفاً - وقطعة من كسوة الكعبة ، وهذه لم يحزها مسيحي .

وقد رأيت في البيت مسبحة مسيحية قيل إنها هدية من البابا لزوجة أمين ، وقد حولتها تلك الزوجة إلى أم أمين . أما آثاره فركوة قهوة وغلايين ، وريش ، وضبوة وقليل من التبغ ، وقلم حبر وقلشين وعصا ، والساعة وبندھا المشهور أى لقطھا التي كانت تتدلى على صدر أمين فيبدو بها كأحد رجالات فجر القرن التاسع عشر .

ورغم جهاد الريحاني ونضاله لم نفكر حتى الآن بتشريد ضريح له . وقد صنع المهاجرون تمثالا له وأرسلوه إلى سوريا لينصب في هذه الديار ولكنه ما زال نائماً نومة أهل الكهف .
رحم الله الريحاني الذي عاش ومات أميناً .

مائدتى

تحت هذا العنوان كتبت عدة رسائل إلى أصحابى
ورفقائى الذين غادروا هذه الدنيا الباقية ، فكان أولها
هذا الكتاب ، إلى الريحانى حين حالت (المراقبة) فى
(الحرب الثانية) دون الكتابة عنه .

أخى أمين .

يا سبحان الله ، ما كنت أحسب أنك ستكون أول مدعو
إلى مائدتى . وكأنى أراك بعينى ، وأسمعك بأذنى تتساءل وتقول :
« وما مائدتك يا رجل .

ليست مائدتى أكلاً وشرباً ، بل برّاً وسلاماً كملكوت الله .
هى سفرة بلا ملاحق . أمدّها فى هذه الزاوية من « المكشوف »
داعياً إليها الناس من بنى وبنى . . . كثيراً ما أجلس المدعوين
عليها ، أما حضرتك فمدعو ، اليوم للجلوس إليها ، ويا ألف
مرحباً .

كيف حالك اليوم ، لا شك أنك عندك خير منك
عندنا . السؤال بارد ، والجواب صقيع وجليد . إياك والجواب .

دع هذا المنديل الأخضر المعصوبة به عيناي . إنه أشد التقاطا
لرسوم الأحلام والأمانى من منديل فيرونيكا الفوتوغرافى .
وما أظرف تلك الشياطين التى توسوس فى صدورنا فنضحى
بمنافعنا المحسوسة لتتحقق أمنية قد تكون أكذب من أخواتها
وأبشع منهن .

ما لنا والفلسفة . كيف حال من عندك ؟ كيف أخونا
جبران ، وصباحنا فليكس ، وعمنا رشيد ، ماذا أحدثوا بعدنا .
أنجز جبران صورة سلمى كرامه ؟ هل انتصب فليكس
خطيباً أمام الشيخ السرمدى . وهل التقى أبو أمين ، بأم القميص
الزهر ، أم تراه أنشد البطرك إلياس أحد أزجاله . هل غضب
غضبه (الهاشمية) ساعة عقوقك عن الدخول ؟

أكان (أخوك فيصل) أول من اجتمعت به تحت زيتونة
الجنة ؟ يا الله ! ! كدنا ننسى أستاذنا الشميل .

كيف صحته ، أيطيب يا ترى ، أم يناقش توتنخمون فى
المذهب الدروينى ؟ .

لا تقل ما هذه الرقاعة ، أبهذا الكلام الفارغ تودع
أصحابك ؟ غض النظر يا أمين . والله العظيم ، نهضت للقيام
بالواجب فوق الطبق ، وكبت الصبحون . يا ليت . تكسرت
كلها . . .

يعز علي الأوس بن تغلب ساعة يسلم على السيف فيها وأسكت
أنت « ببيع » يا أخى ، قبل الموت وبعده . وإلا فكيف
يخنق قلم يودع صديقه الراحل ! إن تشيع المقضى عليهم
بالصلب غير محرم .

تذكر كلمة ذاك الوزير فى الجاحظ : أثق بظرفه ولا أثق
بدينه . أما أنا فوثقت بظرفك ودينك معا . أثبت أنك بمن آمن
بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فأبوا ذلك على وعليك . أنت
والله أشد إيماناً من ابن طيما . وحسبك أنك قلت : ليس فى
حقائق الوجود كلها أنصبغ من حقيقة البعث والخلود . « فيصل
الأول ص ٢١٦ » .

أواه ! ! لولا تعطينى بعض هذا اليقين فأقول لصنين :
« تعال إلى هنا فيجى . صدقنى يا أخى إذا قلت لك : ما زلت
كما فارقتنى . مثل ذاك المطروح عند بركة « حسدا » ليس
من يرمى فيها إذ يحركها الملاك ، ولا من يصيح بى : احمل
سريك وامش : فما أنكد عيش المخلعين .

لا تسألنى عن شىء ، فعلى وحالك كبطرس كرامه مع
أميره بشير حين أرسله رائداً فكتب إليه : الصندوق فى
سطمبول والمفتاح فى لندره . أما صرت روحاً خالدة فافهم عنى
واتركنى إلى حين ، إلى الساعة التى ينطلق فيها قلمى فيتجسد

رأى فيك كتاباً . إنك تاريخ حقبة مر فيها العقل الشرقى
بأزمات حاولت أنت أن تفرجها ، فمت ولما تستول على الأمد .
أما الآن : فنحن سكوت والهوى يتكلم .

خضت المعارك لا تخشى من الرمد ، فمن فراشة في شعرك
المنثور إلى نسر قشعم جثم على قمع المنابر . وخلق بشمس الحقيقة
بعينه الثنتين .

أوه ، الحمد لذاكرتى لم أنس . أن أقص عليك خبراً
فرحني جداً . خبرنى صديق الطرفين الأستاذ خليل تقي الدين
أنك (عدت) إلينا وقرأت في (المهدي) عدد المكشوف الخاص
. هاشا باشا . أما ألف باء الأرواح فأنبأتنا أنك تائه في برية
كالدهناء . . . وفيما أنت تتكلم إذا بروح تطلع علينا طلوع
صموئيل على عرافة عين دور ، احزر روح من هي .

كان محدثنا الشميل ، قال : أمين لم يضل بعد . الحبائل
نصبت في طريقه . عدوه خطراً على العرش . ولكن شفاعته أمه
ستقضى على تلك الدسائس .

بحياتك يا حبيبي ، جاوب عن كل هذا أوّل بأول .
ليتك تتلفن فيرتاح بالناس . قد تكون تلك السقطة نستك بعض
الأرقام . اطلب عليه رقم ١ - ٤٨ تجدني منتظراً .

(سرا) حيرنى ، والله ، ختام مكتوبى هذا ، لا أدرى

١٤١

كيف انتهى . ألك كيان فأقبلك ، أو أكتفى بالتحية من
بعيد . . .

أخوك مارون

عاليه ٣ / ١٢ / ١٩٤٠

الحديد في المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم
للتألب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى
والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوده بثروة
وافرة من الفصحى وتصيل ملكاته وترهف فيه الإحساس
والشعور .

دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

أنشئت سنة ١٨٩٠

● الدار العربية الأولى التي قفزت بالكتاب العربي إلى أوج الكمال .

● الدار العربية الأولى التي تخرج على كتبها المدرسية القيمة الأنيفة أفواج الأدباء والمتعلمين في القرن العشرين .

● أعدت عدتها لتزويد الطلاب عند افتتاح العام الدراسي بمجموعة وافية من الكتب المدرسية وكتب الأطفال والشباب .

افلاذنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

١٢	١ . عمرون شاه
١٢	٢ مملكة السحر
١٢	٣ كريم الدين البغدادى
١٢	٤ آلة الزمان
١٢	٥ الأمير والفقير
١٢	٦ كتاب الأدغال
١٢	٧ بينوكيو
١٢	٨ نبوءة المنجم
١٢	٩ روبن هود

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو ح

Bibliotheca Alexandrina



0660292

785
9
24a